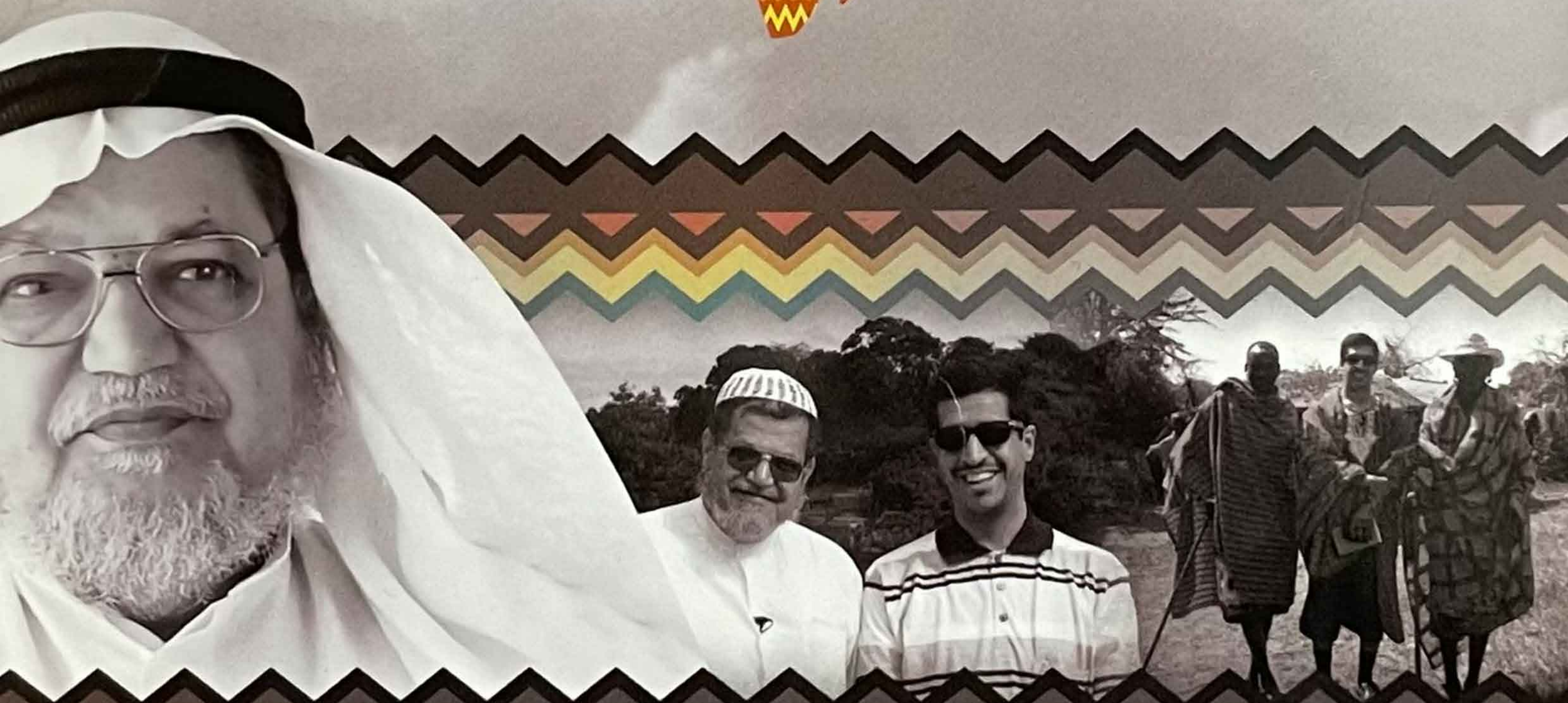
في صحبة السميط

رحمه الله

رحلة في أعماق القارة المنسية



د. فهد بن عبد العزيز السنيدي

دار عالم الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

قبل البدء

حرصت في هذه الأسطر أن أنقلها كما هي دون تدخل في صياغة أو تقوية لعبارة كما نطق بها صاحبها إلا في حالات نادرة تستدعي تصحيحا لغوياً أو تعديل عبارة جاءت سبق لسان من قائلها، وأصل هذه الرحلة برنامج تلفزيوني بعنوان (القارة المنسية) سجلته مع الفقيد رحمه الله مكثت معه في أفريقيا قرابة أربعين يوما متنقلا بين القبائل والقرى، ثم أكملت الرحلة مع بعض الدعاة من مكتبهم وتركنا الدكتور رحمه الله في مدغشقر.

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم؛ وبعد...

فهذه قصة زيارتنا للدكتور عبد الرحمن السميط - رحمه الله - في مدغشقر لتصوير برنامج القارة المنسية، فبعد عزم فريق عمل قناة المجد السفر إلى قارة أفريقيا كانت المثبطات كثيرة، بينما المحفزات واحدة؛ المثبطات أكثر من أن أذكرها حتى لا يتشبث بها قارئ، فأكون السبب في ثني عزمه عن المسير.

أما المحفزات فهي أن الدكتور عبد الرحمن السميط الذي هو في سن آبائنا قد ترك حياة الراحة والدعة، وأقام في بيت متواضع في قرية مناكارا، بجوار قبائل الأنتيمور، وقطع على نفسه العهد أن يمضي بقية عمره في الدعوة إلى الله هناك.

ألا يكفي هذا أن يحفزنا، ألا يكون ذلك درسًا من دروس احتقار النفس أمام أمثال الدكتور السميط؛ من هنا كان عزمنا على السفر لتحقيق أمور عديدة سائلين الله تعالى التوفيق والإخلاص.

حطت بنا ركاب السفر في العاصمة أنتاناناريفو ليقول لنا الإخوة هناك إن خط سيركم سيكون عبر طريق وعر تقطعونه في أكثر من ثلاث عشرة ساعة، أو عبر طائرة صغيرة لا تقلع إلا أحيانًا، وبعدد لا يتجاوز العشرة أشخاص، وهي أشبه بالباص المكسر، وهنا سألنا الأخوة كيف يتنقل الدكتور؟؛ فقالوا الدكتور كثيرًا ما يتنقل برًّا، وقد سافر بالقطار في أكثر من أربعين ساعة بفتات الخبز، فقلنا لأنفسنا: هذا الاختبار الأول رسبنا فيه جزمًا، حيث طلبنا السفر بالطائرة.

وعندما وصلنا إلى مناكارا استقبلنا الدكتور عبد الرحمن السميط بوجه مشرق، ونفس راضية تحمل بين جنباتها همًّا عظيمًا؛ هو هذا الدين، ليقول لنا متى تريدون أن نبدأ العمل، ونزور القبائل لتروا بأنفسكم أن الإسلام كان هنا ولكنه اندثر.

إن الأمثلة المحفوظة والأشعار المنثورة ليست في قاموسي بشيء، لأنها كانت مادة جافة أرددها دائمًا عن العزم، والعمل، والجهد والمثابرة، لكنها أفلست مني أو أنا أفلست منها عند أول درس عملي من الدكتور.

إنني سأوقف قلمي قليلًا يا دكتور لأن الخطوط الحمراء التي لن ترضى بخروجها، والأعمال الكبيرة التي لا تقبل أن يعلم بها أحد لن أبوح بها، ولكني كتبتها بقلم الذاكرة، وحبر الزمن في مجلدات الوفاء. إن لم أستطع قولها للناس تحقيقًا للأمر النبوي الكريم بذم المديح، وحفظ حق الإخوان في عمل السر، فإني سأقولها بدموع تنهمر وعبارات أتنهد بها عندما يسألني أحد عن هذه الجهود.

ماذا عساي أن أكتب لكم عن رحلة استمرت قرابة الشهر في أفريقيا لتصوير البرنامج؟ كان نصيب الأسد فيها للأسد السميط.

لقد تعلمت في أول ساعة معكم يا دكتور أن العمل المتواصل، والبذل الدائم هو طريق النجاح.

لقد تعلمنا منك يا دكتور أن الحياة شباب، وإن كنت حينها كبير السن، وهذه الحياة واحة فريدة في صحراء العمر، ولست أعني الشباب الغض الناعم الذي ترق عنده الحياة فتسحره بالنظرات المغرية، تجمع له ملذات الدنيا في لحظة مُسكرة، أو شُبهة عارضة. الشباب الذي يعيش للهوى، وأحلام اليقظة، فيبدأ تاريخ حياته بالحاء، فلا يلبث أن ينتهي بالباء. ديدن حياته يقوم على هذين الحرفين في غير مكانهما

الصحيح، بالطبع لست أعني هذا الشباب، وإنما أعني شبابك يا دكتور مع بياض شعرك، وصعوبة حركتك وتثاقل أقدامك، إنه الشباب الحي العامل، الذي وضع له غاية في العيش أبعد من مجرد العيش، فهو في جهاد مع وقته، ونفسه، والهوى، والشيطان.

وإذا كانَتِ النفوسُ كِبارًا ... تَعِبَتْ في مُرادِها الأجْسامُ

تعلمت منك يا دكتور أن المال الصالح في يد العبد الصالح سلاح مضاء، وعدة عتيدة، وقوة مكينة، لا يمكن معها التقاعس أو الكسل.

فهمت منك يا دكتور أن الأثرياء في الأمة كثيرون، ولكن النافع منهم قليل، أولئك الذين ضعف عندهم الخلق والدين، واستخفوا بقواعد الإيمان ومبادئ الإسلام، يأكلون كما تأكل الأنعام، دون أن يؤدوا واجبًا لدينهم أو مجتمعهم، بل إنهم أصبحوا حربًا على أمتهم، يُسَخِّرون أموالهم في العفن، والفن، والفجور. يُؤَصِّلون للرذيلة ويقيمون لها المؤسسات والأندية؛ لا يتوانى الواحد منهم أن يقدم المال لكسر فضيلة، أو قتل خُلُقٍ فاضل، بينما يستثقل أحدهم أن يبذل لعمل الخير، يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾[1].

فلا يليق بالرجل القادر أن يرضى لنفسه أن يكون حِملًا على كاهل المجتمع، ثقيلاً مرذولًا، وأن يقعد فارغًا من غير شغل، أو أن يشتغل بما لا يعنيه، إن هذا لمن سفه الرأي، وسذاجة العقل، والجهل بآداب الإسلام.

تعلمت منك يا دكتور أن يكون هَمُّ الدعوة إلى الله شغلي الشاغل، حتى في اللقمة التي آكلها.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٨٦.

أتذكر تلك الزيارات التي نقطع فيها الساعات؛ بين طرق وعرة، وغابات مظلمة مخيفة، وأنهار موحشة في قوارب صغيرة، ومستنقعات منتنة، فإذا وصلنا إلى القرية واجتمع أهلها؛ قال لهم الدكتور: ربي الله الواحد الأحد، الذي خلقني ورزقني، وهو الذي يميتني ويحييني، كلمات يسيرة يدخل بها أعداد منهم إلى الإسلام.

أتذكر تلك الملابس التي تحملها معك، لماذا يا دكتور؟، إنها هدية لملوك القرى تأليفًا لقلوبهم إلى الإسلام؛ لماذا هذه الحلوى يا دكتور؟؛ إنها لأطفال القرى من أجل إدخال السرور على نفوسهم.

ماذا عساي أن أقول؟! وبأي درس يمكن أن أتحدث، هل يمكن أن أسطر رحلة تعلمت فيها رغم قصر مدتها، بقدر ما تعلمته من سني عمري الماضية.

لقد نسيت معاناة السفر، ومشقة الحياة، وشظف العيش، قهرًا لنفسي لأني أرى شيخًا كبيرًا مصابًا بالسكر، وبه آلام في قدمه وظهره، يكسر كل حدود الترف والتأفف أمام ميدان الدعوة إلى الله.

ألا يستحي الشباب من أمثالي وهم هناك من أن يتذمروا لعدم وجود الماء الصالح للشرب أو الاستحمام، أو لعدم الحصول على المناديل المعطرة، أو النوم أحيانًا دون عشاء. يا أيتها النفس كم أنت مترفة، ومنعمة، وبعيدة عن ميدان العمل الحقيقي.

لقد تعلمت من لسع البعوض في تلك القرى دروسًا في الصبر، وتعلمت من شُح الماء دروسًا في اليقين، وتعلمت من انقطاع الكهرباء أيامًا دروسًا في الطمأنينة.

يا دكتور لقد منحتني شهادة عليا في هذه الرحلة لم تستطع جامعات الدنيا أن تمنحني إياها؛ لقد حصلت على الدكتوراه في احتقار النفس أمام العظماء، وتجاوزت الماجستير في العمل الحقيقي الذي كنا نعتقد أنفسنا من رواده، وبكالوريوس بامتياز في معرفة رجال الأمة الحقيقيين، الذين يستحقون شهادات التقدير، وجوائز الشكر. لكنهم مع ذلك يقولون كما كنت تقول لي «يا أخي نحن لا ننتظر شهادات من أحد، نحن عملنا في الميدان، وننتظر من الله فقط أن يتقبل منا».

لازلت يا دكتور أتذكر تلك القرية التي أعلن أهلُها إسلامهم، وكيف كانت فرحتك العارمة كأننا خرجنا بأموال الدنيا، كنا نحن ننتظر مشاهد التصوير، ونحسب إنجازنا بعدد ساعات التصوير، كانت هذه ساحة سعينا، وميدان بصرنا، بينما كنت أنت تسبح هناك، وتنظر هناك، وتتأمل هناك، في الآخرة فلله درك أيها العظيم!

كنت أتعجب منك وأنت تحاسب من يعمل معك بكل دقة، وتقف بنفسك حتى على إطعام الأيتام. وأقول في نفسي هو جهد زائد ينبغي أن يدفعه إلى غيره، لكني فهمت متأخرًا، عندما قلت لي: أموال الناس التي دفعوها لعمل الخير، لا يمكن أن أفرط في ريال واحد منها.

أتدري يا دكتور أن هذا البرنامج كتب سيناريو حلقاته، وصمم فكرته، وأخرج أطرافه عملكم المتوقد، وسعيكم الدائب.

أتدري يا دكتور أني قرأت كل ما كتبته في مجلتكم الكوثر، قبل أن أصل إليك، لأجد ما كتبته عن جهود العمل غيض من فيض، وعندها تذكرت قول النبي صلى الله عليه وسلم (ليس الخبر كالمعاينة)[1] وقول القائل (ليس راءٍ كمن سمع).

كنت أتنقل معك يا دكتور بصحبة فريق البرنامج بين القرى والقبائل، لنجد منك شخصًا ملمًّا بحياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وهذا درس من الدروس الدعوية. فالداعية الحق هو الذي يعرف طبيعة من يدعوهم؛ كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لما أرسله لليمن: (إنك تأتي قومًا أهل كتاب)[2]، إنها معلومة مهمة يُراد من ورائها رسم منهج للدعوة. فليس كل داعية يصلح للدعوة في كل مكان، بل لابد من مواصفات معينة يسبقها العلم التام بطبيعة المدعوين وأحوالهم.

---

(١) رواه أحمد في المسند من حديث ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٤٧)
(٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس (٤٠٩٠).

تذكرت يا دكتور ذلك المساء الحالم؛ عندما أرخى علينا الليل سدوله، بعد أن صلينا المغرب، وانكمش المنعمون مثلنا من آثار البرد، فوقفت على تلك الحلقة المستديرة التي تجَمَّع فيها أبناؤكم الأيتام، يقرؤون القرآن، وأنت تنتقل من حلقة إلى أخرى تطمئن على حفظهم للقرآن الكريم، تبتسم في وجوههم في كل لحظة، تذكرت خروجك بعد العشاء لتطمئن عليهم، هل ناموا، هل استقروا جميعًا ؟

تذكرت يا دكتور سائقك الخاص وأنت تعامله بلطف ومحبة حتى أعلن إسلامه.

تذكرت يا دكتور أولئك الدعاة وهم يجيبون على سؤالي في كل لقاء من أي مدرسة تخرجتم في الدعوة فيقولون من مدرسة عبد الرحمن السميط.

تذكرت يا دكتور تلك الليلة الشاتية عندما عمدنا إلى جذوع الشجر، لنوقد النار للتدفئة، فجلست وقد أحطنا بك من كل ناحية تحكي لنا حكايات رائعة؛ ليست عن حب وغزل ولا شعر وزجل، بل عن دعوة وإغاثة، عن إسلام وراحة، عن أقوام كانوا في ضلال فأنقذهم الله بالإسلام.

أيها الفاضل اسمح لي أن أزجي سر هذه الصور المذكورة من الجهد المتواصل، أنها لم تكن حكرًا عليك فقط، بل هي ديدن أسرتكم الكريمة؛ من زوجة وأبناء.

شكر الله لكم أيها الدكتور الفاضل، ورحمك الله رحمة واسعة، ورفع قدرك يا عبد الرحمن عند الرحمن، وجزاك عنا خير الجزاء، وكثّر الله في الأمة من أمثالك، إنه جواد كريم؛ والحمد لله رب العالمين.

د.فهد بن عبد العزيز السنيدي

خادم الدعوة..... عبدالرحمن السميط

النشأة.. والبدايات..

ولد رحمه الله في الكويت عام: ١٣٦٦ للهجرة، ١٩٤٧ للميلاد، ولد وهو يحمل هم الدعوة.



قال رحمه الله عن نشأته: أنا من عائلة متوسطة، وكنت نشأت منذ نعومة أظفاري يسمونني: مطوع؛ لأني كنت أحرص وأنا عمري خمس سنوات أن أصلي الفجر

في المسجد، وكبرت وكنت دائماً أحب الالتزام بأحكام الإسلام، وفي نفس الوقت أحب العمل الخيري بصورة عامة.

تخرجت من كلية الطب في بغداد مطلع السبعينات الميلادي، وذهبت لإكمال دراستي العليا في بريطانيا وكندا لمدة ثمان سنوات قضيتها هناك، ولم أنقطع عن العمل الخيري في أي فترة من هذه الفترات.

قال الشيخ بدر الراجحي: (الدكتور عبد الرحمن السميط شخصية بدأت مبكراً في العمل الدعوي، وشخصيته تتميز بالجدية منذ صغره، فقد كان يتكلم عن نفسه فيقول: سافرت إلى معظم الدول العربية، وبعض الدول الأوروبية وأنا في المرحلة السادسة الابتدائية أو نحوها.

أخذ جولة في بعض الدول كما يقول وساعده والده بمبلغ يقدر بمائة دينار، فهل مائة دينار تكفيه لأن يزور ليبيا والأردن وفلسطين، ويسافر بعدها إلى إيطاليا، ومن إيطاليا إلى بريطانيا، ومن بريطانيا إلى فرنسا، ومن فرنسا دخل على الحدود التركية بطريقة برية عجيبة؟! كل هذا كان في البداية.

والرجل يحب الحركة والنشاط منذ صغره، ثم توجه توجهاً إسلامياً مبكراً عن طريق بعض الإخوة التربويين.)

كانت تربية والديه الجادة واحدة من أهم أسباب نبوغه وعطائه بعد توفيق الله تعالى له، فقد كان محباً للخير، ميالاً إلى الطاعة منذ صغره.

قال رحمه الله (والدي كان إنساناً عادياً، محافظاً على صلاته، كان يقول لي: افعل ما تشاء، لكن احذر أن يوسوس لك الشيطان في أمرين: في ترك الصلاة؛ أو أن تدخل هللة أو فلساً واحداً إلى مالك من الحرام؛ لأنه سيدمر عليك مالك ولن يكتب الله لك البركة فيه، فاحرص على هذين الأمرين: الصلاة فلا تضيعها، مهما أخطأت أو ارتكبت من الآثام، والشيء الثاني: البحث عن المال الحلال والحرص عليه).

قال الشيخ محمد الخميس: (من أبرز صفاته الشخصية البساطة، فالدكتور عبد الرحمن السميط - أبو صهيب - كان بسيطاً في كل شيء، في ملبسه، في مسكنه، في مركبه، في مأكله، في مشربه، بعيد كل البعد عن التكلف، فالقلم الذي في جيبه ربما قيمته ربع ريال فقط، والسيارة التي يركبها هي مما يستخدمها كثير من الناس، فليس هناك أي اختلاف في حياته الشخصية عن حياة الآخرين.)

رحلاته الدراسية والعلمية..

بدأ دراسته في الكويت، ثم انتقل لدراسة الطب في بغداد لتبدأ رحلة جديدة في حياته، قاطعتها بعض المنغصات والهموم التي أصابته حينها حيث حكى ما حصل له في العراق قائلا (كنت طالباً في السنة الرابعة في الجامعة وأصبت بنوع من القنوط أو اليأس، وأنا لا أعرف اليأس من أي شيء، وحينها كرهت الحياة لما رأيت بعض المناظر التي لم تكن تعجبني في الجامعة، من اختلاط بين البنات والبنين ولباس الطالبات الغير محتشم وغيره، فقررت أن أذهب إلى مكة لأحج وأقيم هناك، فقطعت تذكرة طريق واحد من بغداد إلى مكة، ولم يكن أهلي على علم بذلك، وذهبت للحج وكانت أجمل حجة لي في حياتي؛ لأني أولاً لم أركب السيارة من حين وصلت إلى مكة، وكنت أمشي على قدمي متنقلاً بين المشاعر.





وكانت هذه الحجة سنة ثمان وستين أو سبعة وستين، ذهبت من مكة إلى منى، ومن منى إلى عرفات، كلها مشياً على الأقدام؛ لأني أريد أن أحج على سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فلا أسير في طريق لم يسر فيه، ولا أدخل قبل موعده ولا بعد موعده، وكان معي مسلم ألماني أذكره حتى الآن اسمه (محمد صديق بروكفلد) وكنا رفيقين، وننام في أي مكان، ونعيش مع الناس ببساطة، ونأكل أي شيء).

تخرج الشيخ من جامعة بغداد وحصل على بكالوريوس في الطب والجراحة، ثم حصل على دبلوم أمراض مناطق حارة في جامعة ليفربول ببريطانيا عام ١٩٧٤م، ثم بدأ مشواراً آخر، حيث قرر إكمال دراسته في كندا، ولكنه لن يسافر حتى يبحث عن زوجة.

حياته الأسرية..

قال رحمه الله: «الحقيقة كنت حريصاً على ألا أتزوج إلا واحدة محجبة، وفي ذلك الوقت في الكويت لم تكن عندنا إلا عائلة واحدة لا زالت محافظة على الحجاب، ولجأت إلى العراق وحاولت أن أتزوج من العراق لكن الله لم يكتب لي ذلك، ثم ذهبت إلى سوريا باحثاً عن زوجة ولكن الله لم يكتب لي ذلك أيضاً، فرجعت إلى الكويت وسهل الله لي الزواج، وأحمد الله وأشكره أن زوجتي ساعدتني كثيراً في عملي، فكانت زاهدة لا تريد مالاً في هذه الدنيا، فلذلك كل سنة نذهب فيها إلى أفريقيا كانت تصبر هي والأولاد على الحياة الصعبة، ننام بمساجد طينية، ونجلس اليوم الكامل بدون أكل، أو نجلس على نوع واحد من الأكل أياماً عديدة.

ولا زلت أذكر يوماً من الأيام كنا نائمين مع أولادي في مسجد من مساجد ملاوي، فقالوا: يا أبانا قد مضى لنا خمسة أيام لا نأكل إلا الموز، نشعر أن بطوننا تقلصت، فاشتر لنا شيئاً ساخناً نأكله، قلت لهم: نحن في قرية نائية من أين آتي

بالأشياء الساخنة! فقالوا: اشتر لنا أي شيء، قلت لهم: مثل ماذا؟ قالوا: مثل البيض، قلت لهم: اصبروا عليّ يومين وأعاهدكم أن تأكلوا دجاجاً؛ لأننا سنصل إلى مدينة كبيرة ونستطيع أن نحصل على دجاج فيها، فأصروا على طلب البيض، فذهبنا وجمعنا البيض من الأكواخ؛ لأنه لا توجد سوق في القرية آنذاك، وكنا كلما كسرنا بيضة وجدناها فاسدة، فقلت لهم: هذا عقاب الله لكم.

لكن أولادي بفضل الله، يحبون أفريقيا، وكلهم قد تخرجوا وبعضهم أساتذة بالجامعة».

قال المستشار عبد الله العقيل: (معرفتي بالأخ الدكتور عبد الرحمن حمود السميط قديمة، منذ كان طالباً، فإن والده رحمه الله من أصدقائي، وهو من بلدة الزبير، وبعد أن تخرج طبيباً وعمل في الكويت كانت الصلة مستمرة بيني وبينه، وأشهد له أنه كان طبيباً مخلصاً في مهنته، ودوداً لمرضاه، يقدم الخير للناس جميعاً دون تفرقة، ويعنى بالفقير قبل الغني، وبالضعيف قبل القوي، ويبذل قصارى جهده في الخدمة لكل المرضى، وحين تفرغ الأخ السميط للعمل الإسلامي وآثره على مهنته الطبية وانغمس فيه بذل لأجله كل جهد مستطاع، ووفقه الله عز وجل أن يعنى بالدرجة الأساس بأفريقيا، وأن يركز جهوده على منطقة ملاوي، بدءاً بها، وكان يسعى لدى المحسنين والصالحين من التجار ليجمع المال منهم لينفقه في أفريقيا لعلاج المرضى وإطعام الجائعين، وبناء المساجد وحفر الآبار، وكان يزور كل ديوانية في الكويت، يتنقل من ديوانية إلى أخرى، وكان يأتي إلينا في ديوانيتنا في المنصورية كل جمعة، ويحدث إخواننا الحاضرين بالجهود التي قام بها، والجهود التي ينوي القيام بها، ويستحث الحاضرين للإسهام معه بالجهد والسفر أو التبرع، وكان بفضل الله عز وجل ثم ببركة إخلاصه وصدقه مع الله عز وجل يجد التجاوب الكبير، ومن ثم آزرناه وذهبت معه في رحلات أيضاً إلى أفريقيا، حيث سافرنا بطائرة خاصة من الدمام مع مجموعة من إخواننا في المدينة والرياض

والدمام إلى أفريقيا وتجولنا فيها جولات في مناطق شتى، وكانت الآثار التي رأيناها من جهوده هناك تدل على هذه الطاقة التي منحه الله إياها، فما كنا نتصور أن جهد فرد يؤتي كل هذه الثمار العظيمة في أفريقيا.

كان لا يدخر وسعاً في الذهاب إلى أعماق أفريقيا، بل يسير في الأدغال، ويعبر الأنهار ويتجشم الصعاب، ولا تجد عنده أي ملل أو شكوى أو ضجر، بل كان يقوم بذلك محتسباً رغبة في ثواب الله عز وجل، وقد وفقه الله عز وجل في امرأة كانت له سنداً توافقه وترافقه، وتؤازره وتشد من مواقفه وتعضده.)

بدأت حياته في كندا، لكنها حياة أخرى يحملها بعزم صادق، وسعي دؤوب، وامرأة ليست كباقي النساء، بل هي صانعة الرجال، وحقاً: وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة.

يقول الشيخ نبيل العوضي: (ما ترك الدكتور السميط شيئاً لنفسه، أعطي جائزة الملك فيصل مليون ريال، وهي ما يزيد على سبعين ألف دينار كويتي في وقتها فما أخذ منها شيئاً وتصدق بها كلها.

يقول لي في حديث بيني وبينه: البخيل من أبنائي من ينفق نصف ماله لله، لقد عوّد أبناءه وأهل بيته على الإنفاق، جلست زوجته في كندا في دراسته سنوات معه، وهي بنت عائلة ثرية وعندها خير ومال لكنها تصدقت به، وظلت سنوات لا تملك إلا القليل من الملابس، هذه المرأة الفاضلة التي هي وراء هذا الرجل العظيم، والأبناء الصالحون الذين ضحوا بحياتهم وبأموالهم وبوظائفهم لله جل وعلا هم نتاج هذه الأسرة المباركة).

قال عنها الدكتور رحمه الله: (نحن أسرة ميسورة وزوجتي ورثت مبلغاً كبيراً جداً من أبيها فرفضت أن تدخل هللة واحدة إلى بيتنا، وتبرعت به كاملاً لأعمال الخير، ولقد قضينا خمس سنوات في كندا لا تملك إلا ثوبين فقط، هي التي خاطتهما،

ثوب تلبسه وآخر تغسله، وكنا قادرين على شراء مئات الأثواب، لو أردنا.

سيارتي السابقة عمرها سبعة عشر عاما وكنا نستطيع أن نغيرها كل سنة، لكن يا إخواني يجب أن نغير من نظرتنا إلى هذه الدنيا، يجب أن نبحث عن منابع السعادة الحقيقية التي لا تشترى بالمال.

أذكر أننا قضينا ثلاث سنوات في قرية نائية في مدغشقر في قبيلة أصلها من السعودية، يقولون: نحن أتينا من قرية اسمها حجاز، وبجانبها قرية ثانية اسمها مكة، فيها رجل طيب يحبونه اسمه محمد، وهم لا يعرفون أنه نبي، هاجروا قبل ألف سنة وضاعوا، فهم ليسوا مسلمين اليوم، وليسوا عرباً ولا يعرفون السعودية أو أي بلاد عربية بل لم يسمعوا بها من قبل، كل الذي يعرفونه أن مكة بالشمال، ولا زال عندهم بقايا إسلام، فثارت النعرة في نفوسنا وقررت أنا وزوجتي أن نهاجر إلى هناك، وقمنا ببناء بيت، وجلسنا مع الأيتام ومع طلبة المعهد هناك، وفي الليل من بعد صلاة العشاء تنقطع الكهرباء دائماً، فكل الطلبة الأيتام ينامون، ونحن لسنا متعودين أن ننام بعد العشاء مباشرة، فأجلس أنا وأم صهيب وراء البيت ننظر إلى السماء والنجوم، والغابات البعيدة رغم أنها مظلمة، ثم نحمد الله ونشكره، وفي يوم من الأيام التفتت إلي أم صهيب وكنت أظنها ستقول لي: متى سنذهب إلى الكويت؟ فإذا بها تقول لي: يا عبد الرحمن! لو الله غفر لنا ودخلنا الجنة فهل سنحس بطعم السعادة مثل ما نحس بها الآن؟! لقد اعتبرت الحياة التي نحن فيها في قرية ليس فيها أي خدمات هي السعادة.

والله يا إخوان حتى كيس البلاستيك لا نجده في هذه القرية.

أذكر أنه جاء لي إخوة من جماعة التبليغ من المدينة المنورة، وكانوا لا يعرفون الحياة في ظل هذه الظروف، فذهبوا لشراء الطماطم من السوق، فأعطاهم الطماطم بأيديهم، فقالوا له: كيف تعطينا الطماطم من غير كيس؟ نريد كيساً، قال: لا أجد

كيساً، فذهبوا ووضعوها في جيوبهم، ثم نسوا الطماطم وجلسوا عليها فصارت كاتشب واتسخت ثيابهم.

رغم الحياة هذه إلا أن أم صهيب كانت تتساءل، إذا دخلنا الجنة فهل سنكون سعداء كما نحن الآن؟

لماذا؟ لأننا كل يوم نذهب لبعض القرى ونكلمهم عن الإسلام، ومن أسعد اللحظات لما يأتيني رجل أو تأتيني امرأة ويرفعان السبابة ويشهدان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله).

أما حياته في كندا فقد استطاع من خلالها أن يحدد بعض مساره، وأن يرسم هدفه، وأن يصوب سهامه للدعوة، لم يخطفه بريق الحياة، ولم يتعلق بوعود المناصب في زمن ملك كل أقرانه الملايين.

قال رحمه الله : (لقد بارك الله لي في أشياء كثيرة، أنا كنت أستطيع يا إخوة أن أشتغل بالمستشفى، أو أن أفتح عيادة، فقد كنت من أوائل الأطباء الكويتيين الذي تخرجوا، تلاميذي كلهم الآن لديهم السيارات -الله يبارك لهم- وعندهم الملايين، ولكني والله أشفق عليهم؛ لأنهم يظنون أن السعادة في المال بينما السعادة تجدها في قلبك، ابحث عن السعادة الحقيقية، ابحث عن حسابك ليس في بنك الراجحي أو بنك الجزيرة أو البنك الهولندي، ابحث عن حسابك في بنك الله سبحانه وتعالى، إذا كان الراجحي يعطيك ٦٪ في السنة بنك الله يعطيك ٧٠٠٪ المشكلة أننا نحن كمسلمين لا نثق بالله ثقة تامة، في الصلاة نقول: الله أكبر، لكن أول ما نخرج من المسجد نقول: الريال أكبر، والقرش أكبر، الله سبحانه وتعالى وعدنا بجنة (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) فنقرأ الحديث ونقول: ما شاء الله لا إله إلا الله، وربما نفسره لكن في أعماق قلوبنا نقول: لا والله الريال أهم، الريال هو الذي يغير حياة الإنسان.

أنا أقول لكم يا إخواني: والله أنتم قادرون، كل واحد منا قادر على أن يغير الدنيا كلها كما غيرها محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، الفرق بيننا وبينه هو أنه مبعوث من السماء وعنده الوحي، وما عدا ذلك فالقضية قضية إيمان فقد كان عنده إيمان أقوى من الجبال، أما نحن فإيماننا من أضعف ما يمكن.

يا إخوة! كان بالإمكان بعد زيارتي الأولى لأفريقيا أن أقول: أنا طبيب فقط سأرجع للمستشفى وأعمل فيه وانتهى الأمر، لكني لما رأيت المصائب هناك، رأيت أئمة مساجد يزنون داخل المسجد، لا يعرفون أن الزنا حرام، رأيت أئمة مساجد لا يحسنون قراءة الفاتحة؛ لأنهم لم يسمعوها من قبل.

كان بإمكاني أن أقول: إن هذا العمل عمل حكومات، وسأرجع لأعمل في المستشفى، لكني قلت: سأشعل شمعة في هذه الظلماء؛ فلعله أفضل من لعن الظلام أو أن أنتظر غيري ليأتي ويشعل النور.)

قال الشيخ بدر الراجحي: (في بريطانيا حول ما يقرب من ثمانين كنيسة إلى مسجد، في مرحلة الدراسة وكان لا يزال طالباً، ثم بعدها في كندا أيضاً قام بعمل قريب من هذا العدد، وفي كندا يمكن أن أقول: هي المرحلة التي تبلورت فيها شخصية الدكتور عبد الرحمن السميط، فقد بدأ يحتك بمجموعة من قيادات العمل الخيري والتطوعي والسياسي والحزبي بأنواعه، ثم عرف شخصيته وخطط لحياته بشكل رائع)

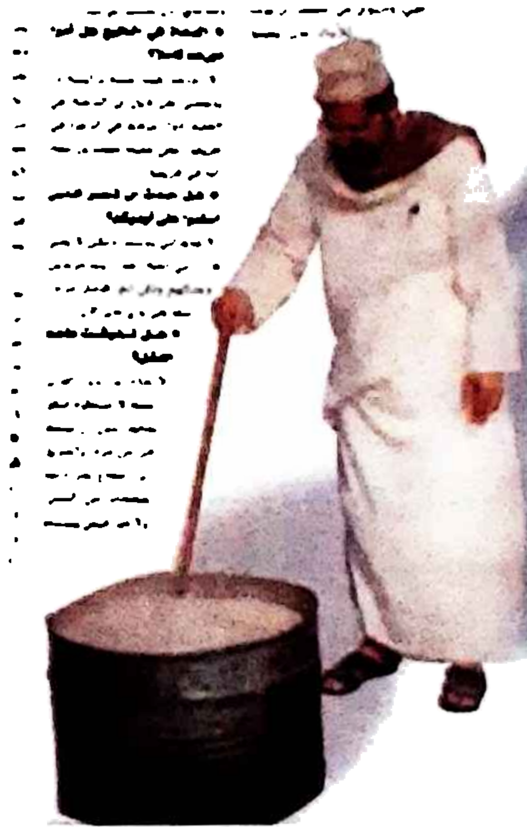
بداية عمله الخيري..

أما البداية الحقيقية فقد كانت مع امرأة، وكأن الله تعالى قدر لهذا العامل الباذل أن تفتح له هذه المرأة باب الخير، حيث كانت صدقتها نواة عمل السميط عام ١٩٨١م، إنها (موضي برجس السور) والدة الشيخ علي جابر الأحمد الصباح.

قال الشيخ السميط رحمه الله : (لما كنت في كندا وفي بريطانيا اتفقت أنا وزوجتي على أن نهاجر إلى إندونيسيا أو ماليزيا ونقيم هناك بصورة دائمة نتفرغ للدعوة إلى الله، ونعيش على أي مال بسيط من خلال عيادة أفتحها أو شيء آخر يكفيني أنا وزوجتي وأولادي فقط في الحد الأدنى من الحياة، فلما عدت لبلدي بدأت تعود إلي أحلامي حينما كنت صغيراً وأنا أقرأ عن أفريقيا وأبكي من أثر القصص التي كنت أسمعها أو أقرأها وأنا صغير، فذهبت إلى وزير الأوقاف وحاولت إقناعه أكثر من مرة بأن يساعدني بأن يفتح لي الباب فقط، فأنا لا أعرف كيف أذهب ومن أين أبدأ؟ فقال لي: إلى أين تريد أن تذهب؟ ذكرت له مرة من المرات خمس دول لأذهب إليها، قال: لا، أنا لن أرسلك إلى خمس دول، وأنا متأكد أنه لم يكن يعرف عن هذه الدول أين تقع، فقلت له: لو ترسلني للقمر أنا مستعد للذهاب دون تردد، وفي كل مرة كان يحيلني على موظف من الموظفين، فكنت أغضب منه، كيف وهو الوزير يحيلني على الموظف؟ معنى ذلك أنه تخلص مني، فما كنت أذهب إلى ذلك الموظف، إلى أن جاءت امرأة وتبرعت لنا لبناء مسجد، فقررنا أن نذهب إلى دولة اسمها: ملاوي، ومن هناك انطلقنا؛ لأن الهدف الأساسي كان بناء مسجد فقط، لكن لما رأيت الوضع هناك مؤلما إلى أقصى حد، أحسست أن قلبي بكى دماً على وضع المسلمين، عندما قابلت أئمة مساجد لا يعرفون الفاتحة، ولما سألتهم قالوا: والله نحن أحسن من غيرنا، لما رأيت مسلمين في قرية كاملة ليس فيهم مسلم واحد يعرف صلاة الفجر كم ركعة، رأيت مسلمين ما رأوا مصحفاً في حياتهم، ولا تزال حتى الآن هذه الأمثلة موجودة في أفريقيا مع الأسف الشديد، ونحن نلهوا في دنيانا).

همته في العمل الخيري..

كان الهم الأكبر في حياته أن يعيش للعمل التطوعي، وولدت معه فكرة البذل والعطاء والسعي ليبدأ في البحث، كان مسكوناً بطاقة خيرية هائلة، أراد تفجيرها في العمل الخيري، وطرق أبواب المسئولين بكل حرص، وسعى من أجل أن يبني لأمته، لكن الله تعالى قد ادخر له في خزائن العلم ما كان خيراً.



قال الدكتور السميط رحمه الله : (في فترة من الفترات كنت مهتماً جداً بتاريخ العرب والمسلمين في مدغشقر، فقمت بعمل بحث عينت فيه تسعة عشر باحثا يساعدوني، وكانوا يقرءون لي باللغة المحلية لأني لا أعرف اللغة المحلية الملقاشية، ويسهلون لي اللغة الفرنسية، وعينت خمسة مترجمين وعدداً من السكرتارية وعدداً من المندوبين، كلهم يشتغلون في هذا المجال لعدة سنوات، وجمعت معلومات

كبيرة جداً، فعرفت من خلال هذا البحث أنه قد جاءهم رجل يمني أو عربي فبدأ يدخلهم الإسلام، فأحبوه حباً كبيراً وبدءوا يذهبون للشمال إلى مكة للحج، فكانت تهب عليهم العواصف في طريقهم فيموتون ومن هنا جاءت فكرة بناء مكة الخاصة بهم).

قال معالي الدكتور عصام البشير:(الدكتور عبد الرحمن السميط من أعلام التجديد في مسيرة العمل الخيري المعاصر، وهو أمة في رجل ورجل في أمة، وطن في قارة وقارة في وطن، صاحب همة عالية، وعزيمة صادقة، وجدية متوثبة، بصماته تدل على آثاره بدلالة الحال قبل دلالة المقال، نذر نفسه وبذل الغالي والنفيس في سبيل الهدف السامي الذي آمن به، وسخر جهده وطاقته لتحقيقه، وهو العمل على النهوض بالإنسان المخلوق المكرم من حيث هو إنسان في عقله بالعلم النافع، وفي جسده بالعافية والنشاط، وفي وجدانه بالتزكية، وسعى وهو يجوب الأحراش والفيافي والغابات والصحاري والأودية والسهول والجبال، تارة بوسائل النقل البدوية المعروفة، وتارة على قدميه بكل هذه المشاق التي يستشعر فيها لذة العبودية لله تبارك وتعالى، وهو يعمل على النهوض بإنسان إفريقيا. فكان بحق ممن جددوا مسيرة العمل الخيري في بعده الإغاثي، وفي بعده الوقائي. وفي بعده التنموي.

الفضول لا يعرف إلى نفسه ولا إلى وقته سبيلاً، رجل يؤثر العمل ويقل القول، كان كثير الصمت، وكان كثير العمل، وشهدت له الساحات التي وضع الله تعالى له فيها القبول الكبير لدى القبائل والأجناس والأعراق الذين وطئت أقدامه ديارهم وأرضهم. وخلف تلك الآثار في مجال التعليم، وفي مجال الصحة، وفي مجال حفر الآبار، وفي مجال الدعوة، وفي مجال النهوض بالإنسان في شتى المجالات في تلك الساحة التي ضربها التنصير والتشيع وضربتها الأمية والجهل والمرض والتخلف، وكأنها تعيش في عصور الظلام، فإذا هو يستنهض الهمم ويشحذ العزائم ويتصل

بأهل الخير الذين وثقوا فيه، واطمأنوا إلى رسالته، فانطلق يجوب تلك الآفاق، ويترك تلك البصمات الحية، ولن يستطيع مؤرخ أن يؤرخ لمسيرة العمل الخيري المعاصر إلا ويترك للدكتور عبد الرحمن السميط حيزاً مقدراً لجهوده المباركة.

عبد الرحمن السميط انتقل من طب المواطن إلى طب الأوطان، وإلى طب الدعاة، وإلى طب الإنسان، ولذلك كانت هذه الرسالة التي لقيت التكريم والتقدير بما ناله من جوائز محلية وعالمية، وأكبر جائزة ينالها بإذنه تعالى هي رضاه سبحانه وتعالى عن هذا العمل، وشهادة المؤمنين الصالحين الصادقين بهذه الآثار الجمة، والسنن الحسنة التي خطها وسار من خلفه الكثير من مؤسسات العمل الخيري، نسأل الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء، وأن يثبت هذه الأعمال في صحائفه الجليلة).

عاش هم القارة الإفريقية في حياته حتى طلق الدنيا من أجلها، طبيب ماهر في دولة فتية تفرح بأمثاله، قال لكل متع الحياة: لا، ليتقدم خاطباً أفريقيا رغم صعوبتها، رغم قسوتها، رغم ما فيها من الشدائد.

قال الدكتور خالد المذكور: (بعد تخرجه من كلية الطب والتحاقه بأحد مستشفيات وزارة الصحة بالكويت، كان مع التطبيب يحاول قدر إمكانه أن يعرف حاجة المريض، ويعطيه من نصائحه، أو يساعده بماله أو يتصل بالجمعيات الخيرية لكي تساعده، فكان بلسماً شافياً لهؤلاء الذين يحتاجون إلى المعونة، وإلى التطبيب.

وقد جمعتني معه بعد ذلك عدة لقاءات في عدة جمعيات خيرية، ثم إنه بعد ذلك تفرغ لكي يكون أميناً عاماً للجنة مسلمي أفريقيا التابعة لجمعية النجاة الخيرية، وإذا ذكرت أفريقيا في العمل الخيري لا بد أن يذكر الدكتور عبد الرحمن السميط).

قال الدكتور سليمان شمس الدين: (وأنا شخصياً أعرفه منذ فترة طويلة، من سنة ٧٧ م، أي ما يفوق الثلاثين عاماً، كان ذلك في كندا، وهو رجل دائماً إذا تناول قضية فإنه يعطيها حقها وينجز، بل وينجح ويتعدى الآخرين ويتجاوزهم، وفي ذلك الوقت كان لديه مشروع بسيط حينما جاء إلى كندا، ونحن كنا في الولايات المتحدة

الأمريكية فرأى أن الكتب الإسلامية المترجمة للغة الإنجليزية غالية، فبدأ بالمشروع وسماه: مشروع الكتاب الإسلامي أو الكتاب الذي يوضع في الجيب، ومشى بهذا المشروع، وأعطاه حقه.

ولما رجع إلى ملاوي أسس لجنة هناك، ثم تحولت إلى لجنة مسلمي أفريقيا، فكان قلب الرجل وعقله وتخصصه وعطاءه وتفانيه اتجه إلى أفريقيا حتى أحبه الناس حباً كبيراً، وبعد فترة احتلال الكويت قبل عشرين عاماً، علم الناس أن الدكتور عبد الرحمن السميط هو رجل أفريقيا دخل في أدغالها وغاباتها وقبائلها، واعتنى بالمرضى فيها، فنجح في الواقع وركز على قضايا مهمة جداً، مهمة باعتباره طبيباً فيشخص متخصصاً فيعالج، ومتفانياً فيحضر فكان لهذه الروح أثرها الكبير في حشد أفريقيا مع قضية الكويت لأن سفيرها غير المتوج هو السميط)

قال الشيخ السميط رحمه الله :(أنا أذكر مئات القصص خلال ربع قرن قضيته في أفريقيا، أنا رغم أني كويتي لكني لا أقضي وقتي في الكويت كثيراً؛ لذلك لا أعرف الكويت بشكل جيد، فأنا أقضي سنوياً عشرة أشهر أو أحد عشر شهراً في أفريقيا متنقلاً، لا أقعد في مكان واحد ثلاثة أيام، حتى أولادي حينما يأتون معي في الصيف من كل سنة ينامون معي في الصحراء أو في الغابات أو في المساجد الطينية وغيره).

قال الشيخ محمد الخميس: (من صفات الدكتور عبد الرحمن السميط الشخصية: نكران الذات، فقد كان ينكر ذاته كثيراً، قال لي أكثر من مرة: إن الله عز وجل خلقني من أجل أفريقيا، وقال لي ذات مرة: يا محمد! لو فتحت قلبي لوجدت فيه خريطة أفريقيا، هذا الحب ونكران الذات ينعكس على جميع تصرفاته، فحينما أكون معه في مناسبة ينظر إلى السقف أو إلى الأرض أو إلى الجدران فإذا وجد شيئاً يصلح لأفريقيا قال لي: يا محمد! هذا يصلح لأفريقيا فلنأخذه معنا، وهكذا إذا كنت معه في سوق أو في شارع أو في مكان عام كل شيء يراه يتذكر حينها أفريقيا، ويختار ما يناسبها).



تعرض رحمه الله للاضطهاد بسبب حمله هم الدعوة، سجن واعتقل في عهد البعث العراقي، وكان يقتطع شيئاً من مصروفه لشراء الكتيبات الإسلامية وتوزيعها في المساجد، وعندما حصل على منحة دراسية قدرها أربعة وعشرون ديناراً، كان لا يأكل إلا وجبة واحدة، ويستكثر على نفسه أن ينام على سرير، رغم أن ثمنه لا يتجاوز دينارين معتبراً ذلك من الرفاهية.

قال رحمه الله: (أنا اعتقلت في عهد صدام وعذبت عذاباً شديداً، وأخذوا لحماً من خدي ومن يدي؛ بحجة أني أقوم بنشاطات دينية كما يدعون، ضربوني أكثر من سبعمائة سوط بحبل التلفون لكني لم أبك؛ لأني لا أبكي أمام الناس، فإذا خلوت بنفسي بكيت وخاصة إذا لم يرني أحد؛ لأني لا أريد أن يراني أحد في لحظة ضعف).

قال الشيخ يوسف الحجي: (عندما تأتي الذكريات بالنسبة لمقابلة الأخ الدكتور عبد الرحمن السميط وذلك بعدما تخرج من كلية الطب بدأ عمله كطبيب يتطلع إلى أن يقدم خدمات خارج بلاده ليساعد الفقراء، وهو قد تخصص في الطب في كندا، وبعدما عاد التقيت به وأنا في وزارة الأوقاف، وذكر أنه يرغب في أن يقدم خدمات طبية ومساعدات إغاثية للمحتاجين في أفريقيا، ويلتمس أن يكون لوزارة الأوقاف دور في أن تساهم معه وتشجعه على هذا العمل، فوعدته خيراً، وبعدها صادف أن يكون هناك مؤتمر للشباب في ملاوي في أفريقيا، وكان من بينهم الشيخ

طعيس الجمّيل، والدكتور إبراهيم الرفاعي، والأستاذ فيصل المقهوي وآخرون، فذهبوا إلى هناك واتصلوا ببعض المؤسسات الخيرية والإسلامية في ملاوي، ووجدوا أن الشعب متعطش لأن يعرف الإسلام، و لابد أن يقدموا شيئاً للشباب الموجودين هناك، فهذا المؤتمر كان مؤتمراً مباركاً والحمد لله وعند عودتهم التقينا بالأخ فيصل المقهوي، والدكتور عبد الرحمن السميط فعقدوا العزم على أن يجسوا النبض بالنسبة لمساعدة أهل الكويت الذين عرفوا دائماً بمؤازرة العمل الخيري، والمساهمة فيه، فشجعوا من قبل بعض الشخصيات والمؤسسات بأن يقوموا بهذه المهمة، فتشكل وفد من الدكتور عبد الرحمن السميط، ومن الأخ فيصل المقهوي، والدكتور إبراهيم الرفاعي والشيخ طعيس، وذهبوا إلى ملاوي حيث كان المؤتمر، وبدءوا يتصلون ببعض الشخصيات وبعض المؤسسات الإسلامية، فوجدوا تشجيعاً، وبعد عودتهم قدموا تقريراً مناسباً لكل الجهات، سواء في جمعية الإصلاح الاجتماعي الكويتية، أو في وزارة الأوقاف، أو ببيت التمويل الكويتي الذي كان في ذلك الوقت حديث التأسيس، فجمعوا مبلغاً وتوجهوا إلى ملاوي وسموا لجنتهم: لجنة مسلمي ملاوي، التي تحولت إلى جمعية مسلمي أفريقيا، وبعدها إلى جمعية العون المباشر).

منهجه في العمل الخيري..

يبني الدكتور عبد الرحمن السميط عمله على أسس وتخطيط، ويحرص على مواصلة البناء الدعوي والتعليمي والإغاثي وفي هذا يقول رحمه الله : (نحن نعمل في أربعين دولة، ومع الأسف الشديد فنحن توسعنا كثيراً خلال خمس وعشرين سنة ماضية، وكنت أتمنى لو حصرنا عملنا وركزنا فيه على مناطق معينة، نحن الآن بدأنا نتوجه نحو قبائل معينة، نركز عليها ونحاول أن نجعل كل عملنا فيها، وفي كل بلد لدينا قبيلة أو قبيلتان، نحاول كسب أفرادهم إلى التوحيد، وإلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولنا منهجنا، وهو منهج يعتمد على التعليم؛ استناداً على دراسة أجريت، حيث ثبت أن الدولار الذي يصرف على الصحة وعلى

الإغاثة يكون أكثر تأثيراً عندما يصرف في التعليم، وحرصنا على ألا يكون التعليم لمدة قصيرة سنة أو سنتين، وإنما كان على المدى البعيد، وأنا أضرب مثالاً لقبائل (الماساي) وهي قبائل متوحشة تعيش على شرب الدم، وعلى سرقة الأبقار، حيث يعتقدون أن كل أبقار الدنيا ملك لهم، فإذا كنت تملك بقرة في البيت فهي لهم وأنت سرقتها، وواجبهم شرعاً أن يأتوا لك ليلاً أو نهاراً ويأخذونها منك، ولذلك يدربون الطفل عندهم من الصغر على كيفية سرقة الأبقار، ونحن فوجئنا بهم في أول سنة عندما قمنا بمشروع الأضاحي، واشترينا أثواراً وتركناها في حوش، ومن حسن حظنا أن جعلنا عليها حارساً منهم، فالحارس يعرف عاداتهم، في الليل جاءوا * يريدون سرقة الأبقار؛ لأن ضميرهم أنبهم كيف تباع هذه الأبقار؟ لكن الحارس تخلص منهم بحيلة ذكية والحمد لله.



أما أيتامهم فقد كانوا كلهم وثنيين، أخذناهم وربيناهم، وفي سنة واحدة * استطاعوا إدخال ثلاثين قرية إلى الإسلام من قبائل (الماساي).

كذلك أذكر قرية من القرى في (بنين)، حرصنا على أن ندخلهم الإسلام وكان عندهم ساحر كبير وصنم، فكانوا يرفضون، حتى الساحر أغلب الأحيان يرفض أن ندعو هناك، ونحن مصرون على الدعوة هناك ونشعر براحة في هذه القرية، وفي يوم من الأيام ذهبنا إليهم فوجدنا عندهم احتفالاً ضخماً، وهم يحملون القرابين للصنم، فيمرون في وسط القرية في طريق ترابي، والساحر يحمل ديكاً على رأسه، وهم يمشون وراءه إلى الصنم لكي يذبحونه له قرباناً، فظهر في الجو نسر جائع وخطف الديك، فالتفت الساحر إلى النسر ثم التفت إلى الصنم وقال له: يا ربنا! أين أنت؟ لماذا لا تدافع عن نفسك؟ هذا الديك حملناه لك، أنا لو سرقوا مني ديكاً، والله سألحق من أخذه ولن أتركه، وأنت يا رب لا تلحق هذا النسر، فقال لنا: تعالوا، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأسلمت القرية كلها بفضل الله سبحانه وتعالى، وأرسلنا هذا الساحر إلى الحج.

توجد قرى في أفريقيا يعيشون عراة تماماً، أذكر منها في جنوب (كردفان) في جبال النوبة، ذهبت إليهم وعشت معهم، وتعلمت بعض فنون الدعوة من خياط موريتاني كان يعيش عندهم، أنا ذهبت وحاولت أقنعهم باللباس وستر عوراتهم وكانوا أناساً مسالمين جداً، فحاولت أن أقنعهم فلم يقتنعوا إطلاقاً، قالوا: عيب عليك أنت الذي تلبس ثياباً! كل الذي عندنا هو عندك فلماذا تلبس؟ أنت تلبس لأنك تستحي من شيء في جسمك، أما نحن فقد خلقنا الله هكذا، وفي فترة من الفترات ظننت أني أقنعتهم فأعطيتهم الملابس، فكانوا يلبسونها إذا نزلوا المدينة، وإذا عادوا استحوا أن يراهم الأهالي وهم بملابسهم فينزعونها ويعلقونها على شجرة ويدخلون عراة إلى القرية رجالاً ونساءً، والحمد لله فقد زرتهم في المدة الأخيرة فوجدتهم كلهم قد لبسوا الملابس، لكن لا زال غيرهم عراة تماماً.

فالذي أريد أن أذكره هنا أني تعلمت الدعوة من خياط موريتاني كان يعيش معهم، وعندهم عادة أنهم يتصارعون في المناسبات، فكان هذا الموريتاني يدخل في الصراع معهم، وكان ذكياً جداً، فقد كان يطلي جسمه بشيء من الزيت، فلا

يستطيعون الإمساك به، وكان قد صنع له سروالاً وضع فيه كل ألوان الدنيا، أخضر على أحمر على فلورسنت على أبيض فكان شيئاً جميلاً يلبسه عند المصارعة، وكانوا إذا تصارعوا لبسوا مثل هذه السراويل، وكانت هذه هي البداية لإقناعهم، فتعلمت منه أنه يجب على الإنسان أن يمشي في التيار أولاً، ويحاول بالتي هي أحسن، لا أن يأتي وهو يحس أنه في مستوى عال وهؤلاء في مستوى أقل منه، فتعالوا إلي أعلمكم).

وقد أكد رحمه الله من خلال القول والفعل على حرصه التام على التعليم وأنه الركيزة الأساس لانتشال أفريقيا من الجهل الذي دمرها سنوات، ولذا كان جل عمله مرتكزاً على التعليم.

قال الشيخ السميط رحمه الله : (نحن المسلمون مع الأسف نهتم ببناء المساجد، ولا نهتم ببناء الساجد، أنا أتمنى من إخواني أن يستثمروا في تعليم إخوانهم المسلمين في كل مكان، التعليم هو وسيلتنا لتغيير المجتمعات، وتغيير الواقع السيئ الذي تعيشه هذه المجتمعات، إذا أعطيناهم شهادة فنحن أعطيناهم سلاحاً يعيشون به.

أما جمعية العون المباشر فقد بدأت قبل خمسة وعشرين عاماً، والحمد لله أننا الآن صرنا من أكبر المنظمات في العالم المتخصصة في أفريقيا، ولدينا ٣٢٨٨ داعية ومدرساً يعملون معنا، ولدينا اهتمام كبير بالتعليم، فلدينا ٨٤٠ مدرسة ابتداءً من الحضانة حتى الجامعة، ولدينا كلية شريعة في كينيا، ولدينا كلية تربية في زنجبار، ولدينا معهد للعلوم الإدارية في الصومال، ولدينا معاهد وكليات في أماكن أخرى، نسعى من خلالها لتوفير التعليم لابن أفريقيا، نعتقد أن التعليم هو حق إلهي وهبه الله لكل إنسان في هذه الحياة.

مع الأسف الشديد فإن أبناء المسلمين لا يمارسون هذا الحق الذي أعطاهم الله سبحانه وتعالى، وأيضاً مع الأسف الشديد فإن كثيراً من المنظمات الدولية بدأت تضع الصعوبات أمام أبناء أفريقيا للتعليم، فمثلاً أنا أعرف أن منظمة دولية - بدون أن أذكر اسمها - طلبت من الحكومات مبدأ المشاركة بالتكاليف، فإذا كنت فقيراً

فلا تستطيع أن تتعلم أو تعلم أولادك، أما نحن فنعتقد أنك سواءً كنت فقيراً أو غنياً يجب أن يوفر لك التعليم، بالنسبة لنا هناك فإن الجيد من أولادنا في المدرسة القروية نأخذه إلى المدينة في مدرسة متطورة، ومستواها أعلى، والجيد منهم نأخذه إلى الثانوية أو الجامعة أو ما بعد الجامعة، وسنوياً يتخرج العشرات بدرجة ماجستير ودكتوراه وخاصة في مجالات الطب والهندسة والعلوم).

اهتمامه بالجانب الإعلامي

تركز جل نشاطه من خلال لجنة مسلمي أفريقيا بعد أن وضعت أجندة خيرية تنطلق في مسارات عدة، تمسح دمعة اليتيم، وتقدم العلم والمعرفة وترعى المحتاج، لم يغفل الإعلام لأهميته عنده.

قال رحمه الله : (الإعلام الجماهيري -ومنها الإذاعات- يستطيع أن يدخل إلى كل بيت شاء رب البيت أم أبى، وأذكر قصصاً كثيرة من واقع خبرتنا في إذاعة القرآن الكريم في (سيراليون)، فهناك قرية كاملة كانت قاديانية، وتظن أن الإسلام هو القاديانية، ونحن لم نصل لهذه القرية ولا غيرنا وصلها، ولكن بسبب الإذاعة فقد عرفوا حقيقة الإسلام، وغيروا عقيدتهم إلى الإسلام الحقيقي.

وهناك جزيرة من الجزر كانت منقطعة في البحر، ولا يأتون إلى البر إلا مرتين في السنة يشترون حاجاتهم ثم يعودون، فجاءني صياد منها في يوم من الأيام وقال لي: أنتم أجبرتمونا أن نأتي ثالث مرة في هذه السنة إلى البر، وهذا لأول مرة يحصل في تاريخنا، قلت له: لماذا؟ قال: لأن بطارية الراديو الوحيد في الجزيرة قد انتهت، فأنا أتيت لأشتري بطاريات له لنستمع لإذاعتكم.

قرية ثالثة في نيجيريا سمع سلطان القرية -وهو سلطان على عشرين أو ثلاثين قرية- عن إذاعتنا في قرية أخرى وسمع فيها الكلام عن الإسلام فقال: أنا سعيد جداً، وأتمنى أن أبناء قريتي يشاركون في سماع هذه الإذاعة، لكن نحن فقراء،

فبدءوا يجمعون ثلاث هللات من كل شخص حتى يشتروا مذياعاً، فجمعوا مبلغ المذياع، ثم بدءوا بأخذ هللة واحدة كل شهر من أجل شراء بطاريات إذا انتهت البطاريات الأولى.

وهناك قصص كثيرة في الحقيقة سمعتها من أناس تأثروا بالإذاعات الإسلامية، أتمنى في مقابل ٤٥٠٠ محطة وإذاعة تابعة للكنيسة أن نعمل أكبر عدد ممكن من الإذاعات، نحن بدأنا الآن بإذاعة إف إم، وهي إذاعات رخيصة نسبياً، حيث إن الأجهزة رخيصة، لكنني كنت أخصص لها وقفاً؛ لأن الإذاعة بدون وقف يمكن ألا تستمر، وكانت تكلفنا خمسين ألف دولار، وتغطي حوالي عشرة آلاف متر، وتبث لمدة أربع ساعات في اليوم، وإذا أردنا أن يكون البث أطول فيجب أن نزيد من نوعية أجهزة البث لأنها تصاب بالحرارة، وقد ينقطع البث، ونستطيع إذا زادت الإمكانيات أن نغير من الإف إم إلى الإي إم؛ لأن الإي إم توصل إلى مائة وستين ألف كيلو متر مربع، وربما أكثر، والإي إم تكلفتها في حدود أربعمائة أو خمسمائة ألف دولار أمريكي، والشيء الجيد أن تكاليف تسييرها سهل جداً، فوجود شخصين أو ثلاثة أشخاص يكفي لتسيير المحطة).

مزجه بين العمل الخيري والدعوي..

كان أكثر ما يؤثر فيه إلى حد البكاء حينما يذهب إلى منطقة، ويدخل بعض أبنائها في الإسلام، ثم تنهال دموعهم على آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فيشعر الشيخ بالتقصير الذي حل به وبالمسلمين، فيبكي لحال من لم يستطع الوصول إليهم، ويردد دائماً هم أمانة في أعناقنا.



قال رحمه الله : (لا أذكر أني زرت قرية إلا وأسلم فيها أناس، خاصة القرى التي كان فيها مسلمون سمعوا قليلاً عن الإسلام، وبعض القرى زرناها لكن لم يسلم فيها أحد، ولكني على يقين وكأني أرى الذي سيحصل بعد فترة إذا ذهبنا إليهم، أو أرسلنا لهم دعاة يعلمونهم الإسلام، أن كل من في القرية سيرفع أصبع السبابة شاهداً أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، من هنا جاء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[1].



أنا أذكر مثالاً في جنوب السنغال، وهي قبائل أغلبها وثنية، ومسيحية وقلة من المسلمين، جاءنا الحاكم هناك وهو بدرجة وزير وقال: أنا أعرف أنكم مسلمون، وأعرف أن أمنيتكم أن تخدموا الإسلام، لكن هناك ست قرى كل أهلها وثنيون أو مسيحيون، ويحتاجون إلى آبار مياه، فهل ستساعدونهم وتحفرون لهم آبار مياه، قلنا له: لماذا نرى اهتمامك بهذه القرى؟ فقال: سبب اهتمامي بها أني أخشى أن المتمردين بدءوا يتصلون بهم، وإذا ثاروا فإنهم سيسببون لنا المشاكل، فأنا أريد استباق هذه

(١) رواه البخاري في صحيحه (ح ٣٤٩٨) من حديث سهل بن سعد (رضي الله عنه)

المشاكل بتقديم خدمة لهم، قلنا له: نحن ننظر لها نظرة أخرى، نحن ديننا يحرم سفك الدماء، وهؤلاء إذا التحقوا بالمتمردين ربما يسفكون دماء إخواننا من الجنود المسلمين أو المواطنين المسلمين في جنوب السنغال، فحفرنا ستة آبار عندهم، وفوجئنا بأن قريتين من القرى خلال أسبوع واحد أسلموا عن بكرة أبيهم، وقرية أخرى أسلم جزء كبير منها، والقرى الثلاث الأخرى أسلم أهلها فيما بعد، وسألناهم: لماذا أسلمتم؟ قالوا: نحن مسيحيون من عقود كثيرة، ولم تهتم بنا الكنيسة، ولم تخدمنا وأنتم ليس بيننا وبينكم علاقة، وكان المفروض أن تحاربونا؛ لأنكم من دين آخر، فبدلاً من هذا أتيتم لخدمتنا تحفرون لنا الآبار، هذا دليل على أن الدين الذي يأمركم بهذا العمل دين عظيم؛ لأننا نعلم أنكم لم تأتوا إلى هنا إلا لأن دينكم أمركم أن تأتوا وتخدموا هذا الدين بنشره وتبليغه، ونحن إعجاباً بهذا الدين تحولنا إلى الإسلام).

تعرض رحمه الله للمصاعب والمتاعب، ولاقى من العنت والمشقة ما لا تطيقه الجبال، لكنه يرى فيها من اللذة والمتعة والأنس ما لا يشعر بها سكان القصور وملاك الأموال؛ لأن جنته في صدره، ومتعته في سماع أقوام يرددون: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.



عاشت أفريقيا معه، وتألم لواقع الحال هناك، وبادر لكل عمل يفتح له آفاق الدعوة إلى الله تعالى رغم الصعوبات.



قال الدكتور سليمان العلي:(هو شخصية من أقوى الشخصيات التي التقيت بها في حياتي، شخصية فريدة آسرة تأسرك من اللحظة الأولى، له إنجازات متميزة جداً في الدعوة إلى الله عز وجل، حتى أنه غدا نموذجاً مشرفاً في الأجيال في مجال العمل الخيري، أصبح الدكتور عبد الرحمن السميط مدرسة، استثمر حياته في النفع والفائدة لهذا الدين والدعوة، وضرب مثالاً من أروع الأمثلة، كيف يقضي حياته في أفريقيا بين الجهل والجوع والمرض تسعاً وعشرين سنة، مع أنه طبيب باطني ناجح؟ نحن نشعر ونحن بجوار هذه الشخصية بعمق التجربة، نشعر أننا أقزام صدقاً؛ لأن شخصيته ببساطة تعلمك أن الحياة هي نوع من الزهد، تعلمك أن الحياة فيها خيرات كثيرة، شخصية استثنائية عندما أتحدث عنها، ملتزمة صادقة مريحة متواضعة، متحفزة لمن تعامل معه، والناظر إليه يرى رجلاً يأسرك بتواضعه وأخلاقه، لما زرناه في مكتبه في الكويت وأنا متفق معه على اللقاء، كان هو بنفسه

الذي يقوم ليخدمنا، فلما سألناه: أين موظفوك؟ قال: ليس عندي إمكانيات لأدفع الرواتب لهم، ولا أستطيع أن آخذ شيئاً من مال العمل الخيري، فكان يقوم هو بنفسه لخدمة ضيوفه).

لكن لماذا أفريقيا؟

هذا سؤال كان يدور في خلدي قبل لقائي بالدكتور السميط رحمه الله... لماذا اختار أفريقيا ؟ أليست أوربا أولى كما يقول بعضهم فهي بلد العلم والحضارة ؟ سألته هذا السؤال وتتبعت حاله ودعوته فظهرت لي الإجابة بلسان الحال لا بلسان المقال

أولاً: أفريقيا هي أول قارة قبلت الإسلام بعد مكة.

ثانياً: لأنها مقبلة على الإسلام، فأنا لا أعلم في العالم طولاً وعرضاً قارة أقبلت على الإسلام كما أقبلت أفريقيا وخصوصاً في هذا القرن، فالذين يدخلون الإسلام في هذه الأوقات بالآلاف، بل بالملايين، ولو وجدوا من يدعوهم ويقبل عليهم بدين الله، ويجوب القارة كما فعل السميط لما بقي فيها أحد على غير الإسلام، لو وجد عندنا خمسة أو عشرة يبذلون مثل ما بذل الدكتور عبد الرحمن ما بقي في القارة أحد على غير الإسلام إلا أن يشاء الله.

ثالثاً: لأن ثالوث التأخر ينخر في هذه القارة، فالجهل والفقر والمرض قد أطبقت كلها على أفريقيا، فأصبحت فريسة لهذا الثالوث القوي الذي يضرب جسد أي أمة فيجعلها أمة متأخرة، وأمة جاهلة، وأمة فقيرة، وأمة مريضة.

رابعاً: لأن التنصير قد عاث فيها فساداً مما يندى له الجبين الحر.

قصته مع السلطان الأفريقي والقس الفرنسي..



قال رحمه الله : (أذكر قصة ربما أثرت فيّ كثيراً، وهي لسلطان من أقوى السلاطين في جنوب تشاد اسمه (بياترس تكورال)، هذا السلطان كان يكره العرب والمسلمين، وقيل لي: أن أكثر من مسلم وأكثر من عربي مروا بمنطقته وقتلوا، وربما كان ذلك بمباشرته أو بإيعازمنه، وبدأت حركة التمرد تدخل بلاده، ونحن يهمنا في العمل الخيري أن تكون الدول الأفريقية مستقرة لا قتال فيها، والأولوية عندنا هي المناطق التي نخشى أن تثور فيها المشاكل، فنحاول تنميتها؛ لأن أغلب القتال إنما يحصل بسبب ضعف الاهتمام بالتنمية، وشح المشاريع، فذهبنا إلى هذا السلطان في قريته وبدأنا نوزع الأكل، وكان ذلك في رمضان؛ ولأنه السلطان فقد أوصلوا له الخبر، فقال: لماذا هؤلاء يوزعون الأكل؟ قالوا: لإخوانهم المسلمين، فقال: هؤلاء الذين أرسلوا الأكل للفقراء هل رأوهم قالوا: لا. ما رأوهم، بل هم في مكة وفي

بلاد العرب، فالرجل تأثر جداً من هذا الموقف، وبعدها بشهرين قمنا بتوزيع أضاحي، فسألهم نفس الأسئلة وكانت الإجابة هي الإجابة الأولى، فقام الرجل وأمر بأن تهدم كل البيوت التي في وسط المدينة، وأعطانا ثمانية آلاف متر مربع وقال: هذا مكان مسجد لكم، وحسب تعبيره هو فقد قال: هذا مكان كنيسة لكم؛ لأنه لا يعرف المسجد، فقلنا له: لا يمكن أن نبني مسجداً لنا من أجل عدد قليل من المصلين أو المسلمين.

وكما أن عندنا أناسا متطرفين ويتصرفون تصرفات هوجاء، فعند الطرف الآخر كذلك، فقد جاء بعض شباب الكنيسة وأخذوا مضخات المياه من الآبار التي حفروها، وأرادوا للناس أن يموتوا من العطش؛ لأنهم أعطونا الأرض، فالسلطان غضب غضباً شديداً، فقام وجمع من أموالهم الشخصية واشتروا مضخات وركبوها للآبار، وبدأ ينشر الإسلام، وأصر هو إلا أن يسلم على يد من بنى المسجد، وكان الذي بنى المسجد امرأة كبيرة السن عمرها ثمانون عاماً، وهي من الكويت، فقلنا له: لا يمكن أن نلبي طلبك هذا، لكنه جاء إلى الكويت، وهو مصر على رأيه، فأبلغنا أهل هذه المرأة فكانوا غير مستعدين أن يستقبلوا عملاقاً أفريقياً ضخماً، فاتصلنا بأمير الكويت (الشيخ جابر الصباح) رحمه الله، فاستقبله استقبالاً طيباً، وكلمه كلاماً طيباً، وأسلم الرجل، وفي ليلة إسلامه رفض أن ينام حتى يحفظ الفاتحة، وهو رجل أعجمي لا يعرف الكلام العربي، فجلس معه أحد شبابنا إلى صلاة الفجر يحفظه الفاتحة، فحفظها، ثم قال: أنا مصر ألا أنام إلا وقد حفظت (قل هو الله أحد) فحفظها ثم سمى نفسه: عبد العزيز، وذهب إلى جدة واستقبله إخواننا في السعودية استقبالاً طيباً جداً، واتصلنا ببعض الإخوة الأفاضل في الندوة العالمية للشباب الإسلامي وبعض الإخوة المسئولين فرحبوا به، وتأثر تأثراً كبيراً بهذا الاستقبال، وترك أثرا في نفسه.

ثم ذهب مكة وحج، وبعدها قمنا بجمع اثنتين وخمسين سيارة استأجرناها من أناس، ندفع قيمة البنزين ونملؤها أناساً، وقمنا بزفه إلى مدينته أو بلدته، ولمدة أسبوع كامل كانت الدعوة متحركة طوال الوقت، والحمد لله فقد بدأ الناس يأتون من أماكن بعيدة من مائتين وثلاثمائة كيلومتر؛ لأنه شخص وجيه يهنئونه بمناسبة عودته، ثم أعطيناه عدة ألبومات وصور له في بلاد الإسلام؛ حتى يعرضها على أهله، وترتفع مكانته، فأسلم على يده ستون ألف رجل، من بينهم ثمانية سلاطين للقبائل، كلما أسلم سلطان آخر كنا قد أرسلنا له داعية خصيصاً له، فلا يعلمه أمام الناس حتى إذا أخطأ لا ينتقص الناس قدره، وهو سلطان ومكانته كبيرة، وكان كل من أسلم نرسله للحج، فيرجعون متأثرين جداً ويبدءون في نشر الإسلام، وأقل واحد أسلم على يديه مائتي شخص).

تخطيطه للعمل الدعوي :

مما يتميز به رحمه الله أنه كان يرسم خارطة العمل بدقة ويعرف أبعاد مشروعه الدعوي وماذا يريد تحقيقه في القريب وما الذي يمكن تأجيله وكان بعيد النظر في تخطيطه ورؤيته للأحداث، ومعرفته بطرق ووسائل الدعوة في القارة الأفريقية

يقول الشيخ بدر الراجحي: (أنا سافرت معه مثلاً إلى أوغندا، كانت منطقة فيها قبائل جديدة لم يدخلها الإسلام أبداً، أو لم يكد يدخلها الإسلام، أو قد تكون ارتدت عن الإسلام بالكامل، المهم أن هذه المنطقة في هذه الفترة لا تعرف المظاهر الإسلامية، حتى إن بعض القبائل وثنية، قد ترى أحياناً في مناطق أخرى بعض الممارسات الإسلامية فيها، فتعرف أنه مر عليها في التاريخ بعض الاحتكاك بالمسلمين وتأثروا بهم، لكن هذه المنطقة ليست كذلك، أنا لم أجد فيها أي أثر للإسلام، يقول لي الشيخ السميط: كنت أجد أن هذه فرصة للدخول في هذه المنطقة ونشر بعض التعاليم الإسلامية، هذه الميزة التي كانت عند الدكتور السميط أنه يستطيع أن يرى الخارطة أمامه بسهولة، ويعتني دائماً بالتفاصيل الدقيقة الخاصة لكل مجتمع، مثل:

هذا المجتمع أصوله القبلية ترجع إلى كذا، وهذا المجتمع عنده قابلية للدخول في المواضيع الروحانية، وهذا المجتمع لا يمكن أن يدخل الإسلام إليهم إلا بالأمور الإغاثية، وهكذا، ثم يرسم رؤية معينة.

لما أحدث التغيير الخطير جداً في مدغشقر مع قبائل الأنتيمور كان قد رسم خارطة واضحة للمداخل التي سيدخل بها للقرى، وكان هكذا يرسم لكل قبيلة أو لكل مجموعة الرؤية المناسبة لدخول العمل إليها، بعضها كان يجلس فيها سنة كاملة لا يحدثهم أنه مسلم، ولا يحدثهم عن الإسلام، ثم يأتي بين عشية وضحاها فيقول: أنا إنما أتيت إليكم من منطلق ديني، وإن ديني يحفزني للإحسان للآخرين، يقول: فلا يبقى فيها أحد إلا ودخل في الإسلام).

كان رحمه الله حريصاً في عمله على الوضوح والبعد عن كل ما يخالف تعاليم دينه أولاً ثم ما يخالف الأنظمة لأنه يريد استمرار العمل بعيداً عن التعنت والتضييق، قال الشيخ محمد الخميس:(أذكر في عام (١٩٩٢م) أول ما فتحنا مكتباً للجمعية في أثيوبيا وكنت أنا شخصياً المسئول عن المكتب، وكنت أنا أيضاً المسئول عن تحويل الأموال لهذا المكتب، فقد كنا نخسر ١٣٪ من الحوالات بسبب تحويلنا لها بشكل رسمي، ولو حولناها بطريقة شخصية في داخل أثيوبيا عبر السوق السوداء فإننا سنكسب ١٣٪ فكنت أستشيره، فقال لي جزماً وبإجابة واحدة بدون تردد، قال: نخسر هذه الثلاثة عشر في المائة من أجل أن يبقى مكتبنا وعملنا قانونياً.

في عام (١٩٩٥م) أي بعد هذه الحادثة بسنتين فقط لا غير، وإذا بحكومة أثيوبيا تعمل مقارنة لجميع المنظمات غير الحكومية الإسلامية وغير الإسلامية، مقارنة واقعها بالأموال التي أدخلتها عن طريق البنك، فإذا كانت الأموال التي دخلت عن طريق البنك لهذه المنظمة أقل بكثير من واقعها في الميدان قالت: أنتم تتعاملون في السوق السوداء، وإذا كانت الأموال التي تحولها أكثر بكثير من الميدان قالت: أنت تستخدمون هذا المال في غير محله، وبمرسوم واحد صدر إغلاق تسع وثلاثين

منظمة غير حكومية بعضها إسلامية، وبعضها غير إسلامية، وجمعية العون المباشر حسب علمي من الجمعيات القلائل التي استمرت في أثيوبيا بعد هذا العام لسلامة عملها والفضل في هذا بعد توفيق الله يرجع لحكمة وحنكة الدكتور رحمه الله)

يقول الشيخ السميط رحمه الله: (نحن نحاول ألا ندخل في مشاكلٍ مع أي إنسان، ونحاول أن نكسب الناس بدل أن نعاديهم، وأنا أضرب لك مثالاً عن أحد القسس فقد استطعنا أن نقنعه أن يبني مسجداً، وقسيس آخر فرنسي عنده قرية كبيرة جداً، صرف عليها من أموال عائلته عشرة ملايين دولار، فما بالك بالمال الذي من الحكومة الفرنسية والمنظمات الأخرى، ومن الأهالي جمع الملايين، فبنى قرية كبيرة كلها مسلمون، ويقول لي بفخر: إنه في خلال إحدى وخمسين سنة من عمله وسط المسلمين ما تنصرٍ أحد من قريته، ذهبت له وأهديته هدية، وكلمته بلطف واحترام، فتأثر الرجل جداً وأهداني هدية، وقال لي: أنا الآن قربت من الموت، وقد بنيت هذه القرية بما فيها، لكني أخاف أن تأتي الكنيسة وتستولي على القرية، ثم تجبر المسلمين على التنصر، وأنا لا أريد هذا، سأهديكم هذه القرية وأسجلها باسمكم، فاعتذرت له؛ لأن تكلفة تسجيل القرية باسمنا يحتاج مبلغاً كبيراً لا نقدر عليه، فقلت له: أنا آسف، لكني أتيت حتى أشكرك وأعبر لك عن شكر العرب بصورة عامة، وعن شكر أهلي في الكويت لك على مواقفك الطيبة، فالرجل بعد اللقاء قام ووزع القرية على الناس وسجلها رسمياً بأسمائهم.

الشيء الثاني: قال لهم: أنا سأرسل مجموعة من أهل القرية إلى فرنسا، وهو يريد أن يجمعوا له التبرعات، وهذا هو الهدف من إرسالهم إلى فرنسا، فهم أي القرويون ببساطة قالوا: لا. لماذا ترسلنا إلى فرنسا؟ أرسلنا لمكة لكي نحج، فيبدو أنه تأثر بالزيارة وتأثر بموقفنا معه، فقام وأرسلهم إلى الحج).

يقول الدكتور محمد الخضيري: (لقد دخلٍ الدكتور عبد الرحمن السميط عالم الدعوة في أفريقيا وهو يعلم أنه سيؤدي عملاً ذا جهد كبير، وفيه قدر كبير من

المشقة، وعرف أنه لن يصل إلى مراده ومبتغاه حتى يضع خطة واضحة المعالم، وهذا ليس بدعاً من التصرف والعمل، بل إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا في أعمالهم يخططون لدعوتهم.

من يزور مراكز الدكتور عبد الرحمن السميط التي كان سبباً في بنائها وإنشائها وشيدها في عامة الدول الأفريقية يعلم أن هذا الرجل كان يسعى لهدف معين، وكان حريصاً على ألا يدخل هذه المشاريع الدعوية في مهب الريح، أو يتسبب لها بتصرفات قد تؤدي إلى تعطيلها، أو إلى ألا تصل بأصحابها إلى المقصود.

لقد كان موفقاً في كثير مما عمل رحمة الله تعالى عليه، وكان واضحاً أن الهدف الأسمى له كان جلياً في عينه، وظاهراً عنده، ولم يكن ملتبساً عليه، لقد زرت عدداً منها في أفريقيا، ورأيت آثار ذلك التخطيط على أعماله، وكان حريصاً على أن تكون تلك المشاريع والأعمال التي يقوم بها ثابتة راسخة مؤدية لمقاصدها، دون أن تدخل في دوامة من عدم وضوح الرؤية، أو الصراعات التي كانت تنبعث في أفريقيا بين الفينة والأخرى، فكان ينأى بها كثيراً عن مجالات الصراع ويحيد الخصوم بقدر ما يستطيع).

يقول الشيخ محمد الخميس: (من أبرز ما رأيته في أبي صهيب رحمه الله خلال تعاملي معه لعشرين سنة ماضية أنه كان لديه بعد نظر لم يكن عند أقرانه أو عند غيره، عملت معه في بداية التسعينات الميلادية، وكان عنده شيء من التنبؤ والتوقع لحصول شيء على إثره يكون هناك تضييق على العمل الإسلامي، أو تضييق على العمل الخيري، ولذلك كان يستعد لهذه اللحظة، واستعداده لهذه اللحظة من عدة جوانب.

منها: أنه كان دائماً يحرص على أن يكون عمله قانونياً في كل شيء، وفي كل بلد يدخل فيه في أفريقيا.

وجمعية العون المباشر لها مكاتب منتشرة في أكثر من خمسة وثلاثين دولة أفريقية، فلا يدخل بلداً إلا وله تصريح رسمي من حكومة تلك الدولة).

تجرده للعمل الخيري بعيداً عن النزاعات السياسية والحزبية..

أسهم رحمه الله في إغاثة الناس في المجاعات والحروب والويلات، رغم حرصه الشديد على البعد عن أي نزاع طائفي أو حزبي أو سياسي، لم يكن ممن يستخدم العمل الإغاثي للابتزاز أو المتاجرة، كانت رحمته بالإنسان تحركه في كل مكان، وكان حرصه على أن ينشر أخلاق الإسلام هو المحرك لعمله.

يقول رحمه الله: (نحن عادة لا نصطدم بالناس، سواء أكانوا مسلمين منحرفين، أم كانوا نصارى، و حتى وثنيين، نحاول أن نكسبهم عن طريق الهدايا والكلمة الطيبة والزيارات، ونجحنا في ذلك مرات كثيرة ولله الحمد.

كان هناك سلطان قرية اسمه هارون رحمة الله عليه، ذهبت إليه، وكان عنده مجاعة، ولم يكن عندي إمكانية كبيرة لإغاثته، فقلت له: سأعطيك عشرين كيساً من الذرة، ثم جلست أتناقش معه عن كيفية التسليم، ومكان التسليم وغيره، وكان لديه عشرون ألفاً من المنكوبين، وأثناء النقاش رأينا غباراً من بعيد يأتي إلينا، فتوقفنا ورأينا عدة شاحنات كبيرة جداً لا أذكر عددها، لكنها محملة بالآلاف من أكياس الذرة، فقام السلطان وذهب إلى القسيس وأخبره، وكان يؤشر ويرفع يده، ونحن لا نفهم شيئاً مما يجري، ثم رجع وعادت الشاحنات أدراجها، فقلت له: عفواً، دعني أتطفل عليك، ومن حقك ألا تجيبني، لقد رأيتك تحرك يدك ورأيت الشاحنات توقفت ثم رجعت فما هو الخبر؟ قال: هذه الشاحنات أتوا بها إلي حتى أوزعها على قبيلتي، فقلت له: ولماذا لم تأخذها وأهلك يموتون من الجوع؟ قال: يا شيخ! هؤلاء يريدوني أن أكون عبداً لهم، لكن أنت لا تريدني عبداً، فأنت تعطيني المساعدة ولا تفرض عليّ شيئاً، فلا أحد منكم فرض عليّ الإسلام، أما هم فقد جاءوا إلي من بين كل الناس لأني مسلم، ويريدون أن يخرجوني من دين

الإسلام، وقد قلت لهم وأقولها لك: لئن أموت جائعاً مسلماً أفضل من أن أحيا بخير وأنا غير مسلم).

يقول الشيخ محمد الخميس: (من الصفات التي كان يحرص عليها الدكتور عبد الرحمن السميط في العمل الخيري أنه يبعد عمله عن السياسة والسياسيين، ما كان يدخل السياسة في العمل الخيري، فإذا حصلت في أي دولة أفريقية انتخابات أياً كان نوعها: سواءً كانت مجالس البلدية أو التشريعية أو الرئاسية، فقد كان الدكتور عبد الرحمن يطلب من قبل كثير من السياسيين، إما لمقابلته أو مساعدته، أو الوقوف معه، فكان يرفض هذا رفضاً قاطعاً، بل يشترط على كل موظف أفريقي إذا انخرط في جمعية العون المباشر في المكاتب المحلية ألا يكون جزءاً من المنظومة السياسية في داخل البلد).

أعظم أمانيه..

كانت أمنياته العظيمة رحمه الله لا تعلق لها بالدنيا ولا صلة لها بالأموال والدور والقصور بل كانت اعظم أمانيه أن يجوب البلاد للدعوة وأن يصرف وقته في هداية الناس يفرح إذا سمع من قال لا إله إلا الله، يستبشر إذا دخلت قرية من القرى في الإسلام، أمنيته التي يكررها دائماً أن يموت ويدفن في أرضه التي عشقها وأحبها ودعا فيها قبائل الأنتيمور ألا وهي مدغشقر.

قال رحمه الله : (أمنية أتمنى أني أحققها، وأنا أستعد لها، وهي أن أشتري مزرعة صغيرة وأبني فيها كوخاً أعيش فيه، وأربي فيه الأيتام؛ لأن لدي أربعمائة يتيم في مركز إسلامي قريب، ومدرسة، وهذه المنطقة في جنوب مدغشقر عند القبيلة التي أصلها من جدة، وأنا أتوقع أنها بعد ست سنوات سيسلم خمسين في المائة من أبناء القبيلة، وأريد أن أرتاح نفسياً، أحس بمعاناة كبيرة وأنا هنا، لأن لدي بعض المشكلات الصحية التي تحتاج بين الحين والآخر للمراجعة، فلدي نزيف في العين بسبب السكر، ولدي مرض السكر يحتاج إلى خمس إبر في اليوم، والإبرة يجب أن تضعها

في الثلاجة، والمشكلة عدم وجود الكهرباء هناك، وهذه إن شاء الله نتغلب عليها، وسنحاول أن نجد مكاناً نشتري منه ثلاجة بالغاز، أو ثلاجة بالطاقة الشمسية أو نحوها، وأنا وزوجتي نصر على أن تذهب هي للتدريس وأذهب أنا لرعاية الأيتام، وإذا بقي لي وقت فأريد أن أكتب خبرتي خلال الخمسة والعشرين عاماً الماضية؛ حتى أساعد إخواني الذين سيأتون من بعدنا من الجيل الجديد ويستلموا هذه المسئولية.



قضيت في أفريقيا أحلى سنوات حياتي، لدرجة أني تمنيت أن أموت هناك وأدفن هناك، واشتريت لي أرضاً وحولتها إلى مقبرة، وحفرت قبرين، واحد لي وآخر لزوجتي، لكن مع الأسف لم يسمحوا لنا بالبقاء هناك).

مدغشقر جزيرة الواق واق

قارة أفريقيا.. قارة المسلمين المنسيين؛ دخلها الإسلام في هجرة الحبشة الأولى قبل أن يدخل المدينة المنورة؛ فقد جاءت ملبية لدعوة الإسلام حبًّا وإيمانًا فبادلها الإسلام حضارة ما عرفتها على مر التاريخ؛ ومن قلب أفريقيا خرج رجال سطروا أمجادًا في صفحات التاريخ البشري.

معروف أن السفر قطعة من العذاب، فكيف إذا كان السفر إلى أقاصي أفريقيا!؛ حيث تنتشر الأمراض وتصعب الحياة إلا على أهلها الذين اعتادوا عليها ولم يعرفوا سواها. لذا كان لزامًا على المسافرين عند تقرير السفر إلى أفريقيا أن يأخذوا التحصينات اللازمة ضد الأمراض المنتشرة هناك؛ خصوصًا الملاريا والحمى الصفراء والتي تعد من أخطر وأكثر الأمراض انتشارًا في مدغشقر وكينيا وتنزانيا وغيرها[1].

---

(١)وفي ذلك يقول الدكتور: أحمد حسين: إن التطعيمات الواجب أن يحصل عليها المسافرون إلى بعض الدول الأفريقية مثل مدغشقر وكينيا وتنزانيا وزنجبار تتمثل في:
التطعيم ضد مرض الحمى الصفراء: وهذا الطعم ضروري لأن مرض الحمى الصفراء من الأمراض الخطيرة والأهم من العلاج هو الوقاية، وهذا الطعم يوفر حماية للإنسان من هذا المرض لمدة عشر سنوات.
التطعيم ضد مرض الكوليرا: طُعم مرض الكوليرا يعطي الإنسان مناعة لمدة ستة أشهر، ولابد من التطعيم قبل السفر بمدة ستة أيام؛ وأهم ما في مرض الكوليرا أثناء التواجد بأفريقيا أن يتأكد الإنسان من الطعام والشراب الذي يُقدم إليه لأنه هو الوسيلة الأولى لانتقال هذا المرض.
التطعيم ضد مرض الملاريا: مرض الملاريا من الأمراض الفتاكة التي تصيب الإنسان ولا يوجد لها تطعيم، ولكن تُعطى بعض الأدوية التي تزيد من مناعة الإنسان ضد الإصابة بمرض الملاريا.
وجميع هذه التطعيمات متوفرة في مراكز التحصين الدولية.

عزم فريق العمل على السفر إلى القارة المنسية وتوجهنا ابتداءً إلى مطار القاهرة الدولي نحمل معنا صورة معينة لما سنلاقيه في هذه الرحلة، والتي استمرت أكثر من عشر ساعات؛ فمن المحطة الأولى مطار القاهرة الدولي إلى الخرطوم في توقف يسير ثم إلى نيروبي عاصمة كينيا، ثم بعد ذلك إلى أنتاناناريفو[1] عاصمة جزيرة مدغشقر؛ حيث كان مجموعة من الإخوة الدعاة في انتظارنا لقضاء أول أيام الرحلة في عاصمة مدغشقر.

فعلى أطراف المحيط الهندي المحيط الهائج دائمًا تقع جزيرة مدغشقر؛ كنا نسمع من بعض الناس أنها جزيرة الواق واق! هذه هي جزيرة الواق واق؛ جزيرة مدغشقر رابع أكبر جزيرة في العالم، حيث تبلغ مساحتها حوالي ستمائة ألف كيلو متر مربع؛ والغابات بها كثيرة جدًا والأنهار كثيرة لكنها مع ذلك دولة فقيرة، ويبلغ عدد سكان مدغشقر حوالي اثني عشر مليون نسمة، وهم خليط من أعراق وجنسيات مختلفة.. صينيون، إندونيسون، ماليزيون، هنود، عرب وأفارقة. وهذه التركيبة السكانية يصعب معها تحديد نسبة المسلمين، إذ ليس هناك جهة تحدد نسبة المسلمين، لكن الكنيسة تدعي أن نسبة المسلمين ٢٪ بينما يؤكد المسلمون أنهم ٢٥٪ من جملة السكان.

وقد اكتنف الغموض تسمية الجزيرة بهذا الاسم هل هو عربي أو مُعرب أو محرف؛ إلا أن المؤكد أن التسمية الحالية أُطلقت بهذا اللفظ من قبل المستعمر البرتغالي.

ومدغشقر اسم للمكان أما اسم السكان فالملاجاش وهى تعني ملايوي يعيش فى مدغشقر؛ وهذا يدل على سيطرة الملايويين على الجزيرة ونفي سواهم من القبائل الأخرى، حتى أنهم سموا لغة الجزيرة باللغة الملاجاشية وهى تكاد تكون عامة في

---

(١) أنتاناناريفو: عاصمة مدغشقر، وهو اسم طويل مركب من كلمتين أنتانانا أي بلدة، وريفو أي الألف، ومعنى الاسم بلد الألف نسمة وذلك لأن وجود ألف نسمة مجتمعين في بلدة واحدة أمر يستحق الإشادة في زمن مضى بالنسبة لهم.

الجزيرة على سعتها إلا أنها ذات لهجات قد يبتعد بعضها عن الفصحى فيها حتى لا يكاد يفهم منه الآخرون، ولغتهم لغة حصرية إذ لا يوجد أحد خارج الجزيرة يتكلم الملجاشية.

وتنتشر القبائل في أماكن كثيرة، وأكبر قبائل مدغشقر وأكثرها عددًا قبيلة الميرنا والتي كانت تعيش قبل الاحتلال في ظل مملكة ممباجاكا القوية التي يتألف مجتمعها من طبقة النبلاء؛ ويعرفون باسم أندريانا، وطبقة العبيد آنديفو، وكان من نتائج الغزو الغربي لجزيرة مدغشقر أن اعتنق معظم أفراد القبيلة النصرانية، مع خليط من الإسلام والوثنية التي ظهرت بوادرها في العادات والتقاليد مثل الزواج والدفن، والمحاكمات، ونحو ذلك.

أما الخرافات والسحر وتحضير الأرواح كما يسمونها فمنتشرة بكثرة وتسمى عندهم اترومبا؛ فَمُحَضِّر الأرواح رجل شرير صبغ نفسه بالطين والأصباغ المختلفة، ويشرب الدخان الكثير عن طريق الغليون، ويلزم الناس بأمور شركية كثيرة. وله مقر يسمى بالمعبد، وعنده يقف الحرس، وفى الخارج تقام الرقصات على أنغام الموسيقى المخيفة المزعجة والأجراس الكثيرة.. طقوس غريبة ومزعجة.







عندما يحين الفجر في عاصمة مدغشقر وفى وسط الجو البارد تتحرك طلائع الكادحين من العاصمة في اتجاه الأسواق، ومراكز العمل في المدينة على وسائل نقل مختلفة أغلبها قديمة.

التعليم في مدغشقر تسيطر عليه الثقافة الفرنسية بشكل كبير بحكم الاستعمار الفرنسي الذي استمر في البلاد إلى عام ١٩٦٠مـ مما أدى إلى تعميم اللغة الفرنسية في المدارس بما فيها المدارس الابتدائية.

أما الإعلام فهناك محطة إذاعية تملكها الحكومة، ومحطات أخرى مستقلة، وأربع قنوات تلفازية؛ أما الصحف اليومية فيصدر في البلاد ست جرائد، أغلبها بالفرنسية ولا يصدر من هذه الجرائد سوى أعداد قليلة نظرًا لقلة القراء؛ رغم انخفاض أسعارها مقارنةً بأسعار الصحف في دول العالم.

في مدغشقر تقل السيارات الفارهة، وتكاد وسائل النقل الأخرى أن تكون نادرة؛ فالطائرات الداخلية قليلة، أما القطارات فيوجد منها من النوع القديم المتهالك الذي لا يغني عن المشي، بل ربما يكون المشي أفضل، وأما السيارات فأغلبها قديم والسفر بها متعب جدًا.

وهناك محطات خاصة يجتمع بها الناس لحجز مقاعدهم في باصات صغيرة يكتظ بها عدد كبير من المسافرين في رحلة قد تستمر لأكثر من عشر ساعات على

طرق وعرة وشاقة، إذ تبلغ الطرق المعبدة عندهم حوالي ستة آلاف كيلو متر فقط، ولا توجد طرق مزدوجة في جزيرة مدغشقر أبدًا. والفقر الشديد زاد من المعاناة والمأساة؛ فعند الرغبة في قطع أي مسافة، وإن كانت قصيرة، فإننا لا نسأل عن هذه المسافة وإنما نسأل عن المدة. فهل يمكن أن يصدق إنسان أن مسافة عشرة كيلو متر تُقطع في حوالي الساعة.





وشوارع مدغشقر تشتهر بوجود وسيلة نقل قل أن توجد في بلاد أخرى، هذه الوسيلة هي البوسبوس، والبوسبوس كلمة فرنسية في الأصل وهي أقرب ما تكون إلى «بوش بوش» يعنى ادفع ادفع، وهي تشبه الركشا في الهند؛ إلا أن الأخيرة تُجر بدراجة هوائية، بينما البوسبوس يحمله الرجال الذين ربما كانوا حفاة الأقدام؛ بعضهم يُركِب معه اثنين وأحيانًا ثلاثة؛ والبسبوس هو وسيلة النقل الوحيدة في هذه المدينة، توجد سيارات لكنها قليلة جدًّا، والبوسبوس بعضها يمشي ثلاثة كيلومتر، وأحيانًا أربعة كيلومتر. وتستعمل عربات البوسبوس في نقل الأشخاص والبضائع على حد سواء، وتستعمل غالبًا في توصيل الطلاب إلى مدارسهم.

يُذكر أن كل الذين يعملون عليها هم من القبائل الوثنية، حيث يأنف المسلمون من العمل فيها. وأغلب العاملين من الفقراء، وحفاة الأقدام، وتنتشر فيهم العادات الضارة والسيئة؛ ويُزين أصحاب عربات البوسبوس عرباتهم برسومات، وكلمات، وألوان معينة للمفاخرة بها أمام الآخرين؛ وهؤلاء لديهم القدرة البدنية على جرها بسرعة لعدة كيلومترات.

أما الطائرات الداخلية في مدغشقر فهي صغيرة جدًا ولا تتسع إلا لعشرة أشخاص فقط، وهي من النوع القديم، وقد لا توجد سوى طائرتين أو ثلاث في بعض البلدان.

وربما واجه المسافرون على متن هذه الطائرات مصاعب عدة، ويكفي أن نعلم أن المدرج المخصص لها لا يتسع لسواها؛ وربما دخل أهالي القرى إلى مدرج الطائرة، مما يسبب ربكة في حركة طيران الرحلة.

ومن الطرافة أن هذه المدارج الخاصة بالطائرة قد لا تستطيع الطائرة أحيانًا النزول عليها؛ فمثلًا مرة كانت الأبقار ترعى على المدرج بأعداد كثيرة والطائرة تريد الهبوط، واستمروا أكثر من نصف ساعة لإخراج الأبقار من المدرج.

طرفة أخرى بطلها أحد الذين كانوا يتعلمون القيادة على سيارة نقل صغيرة، كان أول مرة يرى سيارة النقل في حياته، وكان يتعلم القيادة داخل مدرج الطائرات، فتعطلت السيارة في المدرج، وتعطلت الطائرات عن الهبوط، وانتظرت محلقة حتى يتم إخراج السيارة المعطلة من ممر الطائرات.

الوضع بدائي جدًا حتى في المطارات فالطائرة تهبط فقط لمدة عشر دقائق إلى ربع ساعة، تأخذ ستة ركاب إلى عشرة من محطة إلى محطة.

ولأن السفر بالسيارات شديد الصعوبة؛ ويأخذ منا الوقت في رحلة واحدة حوالي أربع عشرة ساعة؛ اضطررنا إلى العودة في مثل هذه الطائرات الصغيرة الخطرة.

وتشكل الأسواق الشعبية في جزيرة مدغشقر واجهة من ثقافة هذا الشعب، حيث

تجد الأمور البدائية والبسيطة داخل الأسواق؛ فعندما دخلنا السوق كانت البضائع المختلفة متناثرة، فالأكل والأطعمة مع الملابس والأحذية، والباعة متداخلون في كل ناحية.

الأرز والدقيق من أهم المنتجات الزراعية عندهم، والشعب المالاجاشي يأكل الأرز ثلاث مرات في اليوم، ورغم أنه يُزرع عندهم بكثافة إلا أنهم يستوردون كميات كبيرة منه.

وهم مشهورون بصناعات الخوص، فمنه يصنعون الحاويات والحُصر، وقبعات الرأس وغيرها.

لاحظنا توافر السمك المجفف في الأسواق وهو مهم عندهم في الأكل.

في السوق تجد الملح الخشن، وقد عرفوا الملح قبل أن يعرفوا السكر، لذلك هم يسمون السكر سكر مر، أو سكر ملحي.

وفي الأسواق تجد نوعًا من الفاكهة المهمة عندهم واسمها «الكروسولا» تُفتح من الداخل وتقسم، لكن الخارج لا يُستخدم.

عندهم نوع مثل البطاطا اسمها كاسافا، وهي تزرع عندهم بكثرة، ويستخدمونها مثل البطاطا تمامًا، تُشوى، أو تُجفف، ثم تُطحن مثل الطحين، يصنعون منه بعض المعجنات و الحلويات. ومن نفس طحين الكاسافا هذه يصنعون خبزًا، ويمكن أن تؤكل كما هي؛ يزيلون الأشياء التي عليها ويأكلونها.

السميط ولذة الدعوة بمدغشقر

مناكارا بلدة هادئة حالمة؛ تقع على أطراف المحيط، انتقلنا إليها من العاصمة إلى الجنوب الشرقي على طائرة صغيرة جدًّا، هي في الهواء أشبه ما تكون في الأرض على الطرق الوعرة؛ وفي أثناء الطريق كانت الجزيرة الخضراء تستهوي النظر، أشجار جوز الهند والزيت تترامى هنا وهناك، الأنهار تجري في كل مكان، خضرة وطبيعة خلابة؛ توقفت الطائرة في بلدة مانانجارا، استمر التوقف حوالي ربع ساعة حيث ارتاح الركاب ثم واصلنا المسير؛ عند وصولنا مطار مناكارا كان الدكتور عبد الرحمن السميط - رحمه الله - في استقبالنا، يحمل معه الهمة العالية والإصرار والعزم، يعطينا من دروس الوفاء والعمل ما نعجز نحن الشباب عن حمله.





في البداية طرحنا سؤالًا على الدكتور عبد الرحمن السميط؛ لماذا اخترتم جزيرة مدغشقر؟ لماذا جئتم إلى هنا تحديدًا؟

فكانت إجابته رحمه الله....

(كثير من الإخوة يسألون هذا السؤال، لماذا جئت إلى هنا، لماذا اخترت هذا المكان، وتركت أهلي، وتركت بلدي، وتركت إخواني، وعيالي، وبيتي، وراحتي، أقول أنا مثلي مثل أي مسلم من المسلمين، أنا أبحث عن السعادة، قد يعتقد بعض الناس أن السعادة في الأموال، وبعض الناس يعتقد أنها بالشهادات، بالجاه، بالمكانة الاجتماعية، أنا أعتقد أن السعادة ممكن أن تحصلها بطاعة الله أولًا، ثم بأن تحاول أن تغير العالم، ليكون العالم مكانًا أفضل لغيرك من البشر، لهذا أنا جئت إلى هنا حتى أكون في خدمة إخواني من أبناء هذه القبيلة، قبيلة الأنتيمور، التي كانت في يوم من الأيام عربية ومسلمة، ولكن مع الأسف ضاعت، وأنا أعتقد أن آباءنا وأجدادنا يتحملون جزءًا من هذا الضياع.

ولكن حتى نحن يجب أن نعمل شيئًا، لا يكفي كوني خليجي وعندي أموال أن أرسل أناساً وأنا جالس في مكتبي، وجالس في المكيفات، أنا أعتقد أني لابد أن آتي إلى هنا ولابد أن أعمل، وجربوا يا إخواني ذلك.

أنا أتمنى من كل من تصل له كلماتي هذه أن يجربوا ليس شرطًا مدغشقر، جربوا في بلادكم، في بيوتكم، حاولوا أن تغيروا الدنيا من أجل أن تكون دنيا أفضل لغيرنا من الإخوة والأخوات حولنا).

طلبنا من الدكتور السميط أن يعطينا إطلالة سريعة عن جزيرة مدغشقر ذات الستمائة ألف كيلو متر...

فقال رحمه الله:

(نبدأ بالعاصمة أنتاناناريفو فبها قبائل الهوفا أو القبائل التي جاءت من

إندونيسيا[1] قبل الإسلام، وكانوا قراصنة، وهم المسيطرون على الحياة التجارية والحياة السياسية، وإذا انتقلنا إلى المنطقة التي أسكن فيها وهي مدينة مناكارا وقرية فيوبينو حيث قبائل الأنتيمور والتي تمتد مائتين وخمسة وعشرين كيلو مترًا من ماناجاري إلى فارافنجانا، هذه المنطقة كلها مناطق الأنتيمور، وفيها أنهار كثيرة، وعدد سكانها حوالي مليون نسمة[2]. والأنتيمور موجودون في كل الجزيرة لأنهم كانوا الوحيدين الذين يعرفون القراءة والكتابة، وهم الوحيدون المثقفون.

وإلى ما قبل مائة وخمسين سنة لم يكن هناك أحد يكتب باللغة العربية غير الأنتيمور.

وهذه القبيلة من أصول مختلفة، ولكن الجزء الأكبر من القبيلة جاءوا من الحجاز وبحسب ما يقول بعض كبار السن منهم أنهم جاءوا من قرية اسمها «جدة»؛ هم لا يعرفون أين يقع الحجاز ولا أين تقع جدة، ويذكرون أيضًا أنه بجانب جدة توجد قرية ثانية اسمها مكة يحبونها كثيرًا، ويقولون كان فيها رجل طيب اسمه محمد يحبونه؛ ولكن لا يعرفون أنه نبي- صلوات الله وسلامه عليه- ويقولون إن اسم جدهم الأكبر «راع علي مكرارا»، وراع هو صاحب الفخامة أو صاحب الجلالة «علي مكرارا الكرار»؛ فصاحب الفخامة هو «علي الكرار» ويقولون إن محمداً هو أبو علي الكرار.

القبيلة خلال الألف سنة الماضية فقدت هويتها فما عادت عربية وما عادوا مسلمين، ولا يعرفون اللغة العربية، والبقية الباقية من المسلمين قضت عليهم فرنسا في الحرب الأهلية التي وقعت عام ١٩٤٧م والتي تم فيها تعذيب وقتل عدد كبير من المسلمين لدرجة أن من بقي من المسلمين غيروا أسماءهم إلى أسماء مالاجاشية.

---

(١) وهم في الشكل أشبه بسكان إندونيسيا تقريبًا.

(٢) قبائل الأنتيمور تنتشر على رقعة مائتين وخمسة وعشرين كيلو مترًا تقريبًا في الجنوب الشرقي من جزيرة مدغشقر، موزعين على حوالي ثمانمائة وخمسين قرية، يبلغ تعدادها حوالي نصف مليون نسمة ؛ تتداخل معها من القبائل الأخرى نصف مليون آخرين.

والجهل عندهم وصل إلى مستوى كبير فالغالبية العظمى من القبيلة هم وثنيون، والمسيحيون هم المتعلمون حيث التحقوا بالمدارس، وجميع المدارس هنا تابعة للكنيسة، ومن يلتحق بها يتحول إلى المسيحية. أما بالنسبة للمسلمين فما أظن أنهم يزيدون عن اثنين بالمائة في القبيلة؛ وقد بدأت بالعمل الدعوي وسطهم منذ عام ١٩٩٤م).

إن قبائل الانتيمور تعتقد أن جدهم الأكبر جاء من بلدة في الشمال اسمها جدة، وأن بقربها قرية طيبة اسمها مكة، فيها رجل صالح اسمه محمد؛ جدهم الأكبر يسمونه راع علي مكرار، أي صاحب الفخامة علي الكرار، وأن والد علي الكرار اسمه محمد، ومن أجدادهم رابكارى أي صاحب الفخامة أبو بكر، ورابعرى أي صاحب الفخامة عمر، ورا أوثمانى أي صاحب الفخامة عثمان، وأمهم را أمينة أي صاحبة الفخامة أمينة.

ولدى قبائل الأنتيمور ملوك موزعون على القرى ولهم طريقة خاصة في الحكم والملك؛ فالملك لا يتكلم إلا بحضرة مستشاريه ولا يجيب على الأسئلة إلا بإذنهم.

ولجميع هؤلاء الملوك ملك رئيس يسمونه هم «ملك الملوك»[1]؛ هذا الرئيس يصعب لقاؤه إلا بإذن، ولاستقباله طريقة خاصة، ولا يجوز له أن يلبس الأحذية أبدًا، وعندما رغب في لبس الحذاء اجتمع أعيان القبيلة وأصدروا مرسومًا ملكيًا يسمح للملك بارتداء الحذاء[2]. والصلة بالعرب والعربية لم تنقطع عند قبيلة الأنتيمور خصوصًا تلك الكلمات التي تدل على أن لها علاقة كبيرة باللغة العربية؛ فقد كانت قبيلة الأنتيمور تجيد اللغة العربية، بل هي التي سهلت للقراصنة الأسيويين دخول الجزيرة قبل أكثر من ثمانمائة سنة.

---

(١) تسمية لا تجوز شرعًا.

(٢) في إحدى الزيارات الدعوية دخلنا قصر ملك إحدى القرى وأخطأنا خطأ فادحًا حيث دخلنا بالحذاء أنا وبعض فريق العمل، طبعًا النظام يعاقب على دخول قصر الملك بالحذاء والعقاب شديد جدًا لكنهم نظرًا لأننا ضيوف، ولأننا لا نعرف نظام القرية، سمحوا لنا بأن نخرج ونخلع الحذاء، أجلكم الله، ونستأذن من الملك، ثم ندخل.

وقد وضح لنا الدكتور عبد الرحمن السميط أن اللغة العربية لها تأثير ليس بالقليل على اللغة الملاجاشية بصورة عامة.

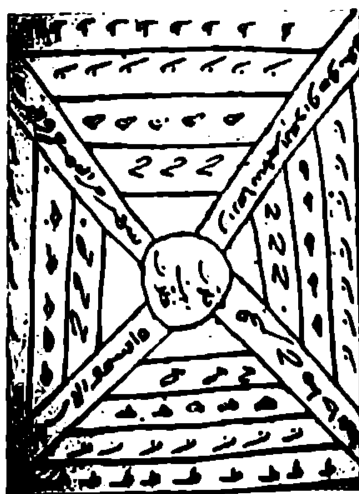
فهو يعتقد أنها دخلت إلى اللغة الملاجاشية عن طريق قبائل الأنتيمور؛ وقد ضرب مثالًا على ذلك بأيام الأسبوع باللغة الملاجاشية فهي:

«تابوتسى أي سبت، أحادي أحد وهكذا»، وهناك كلمات كثيرة أصولها عربية.

كما وضح لنا الدكتور السميط أنه اطلع في باريس على خريطة رسمها أحمد بن ماجد لمدغشقر وكلها مدن عربية مثل بني إسماعيل، بني شعيب، بني إبراهيم، رأس الملح، وجزيرة إبراهيم.

وللأنتيمور كتاب مقدس اسمه السورابي أي الكتاب الكبير، ويكتبونه بالحرف العربي القرآني، وفيه شيء من القرآن، ولكن به أخطاء كثيرة، وشعوذة وسحر وطلاسم، ويقع الكتاب في أكثر من عشرين جزءًا، لا يطلع عليه إلا الخاصة، ويكتبونه على ورق خاص بهم يسمى ورق الأنتيمور، يصنعونه بأيديهم من أوراق أشجار معينة، يطبخونها حتى تصبح عجينة، ثم يفرشونها ويتركونها تجف، ولا يقبلون بكتابة كتابهم المقدس على ورق عادي أو مستورد.

وقد اطلعت على جزأين من هذا الكتاب المقدس عندهم، رأيت فيه آية الكرسي وسورة يس والمعوذتين والإخلاص وبعض الفاتحة ورسومات وطلاسم وأرقام وخطوط متداخلة وغيرها.



إطلالة على حياة الدعاة في مدغشقر

تأهيل الدعاة

هناك عدد من الدعاة الذين نذروا أنفسهم للدعوة وبذل الخير وإيصال رسالة الإسلام في كل مكان، يتم تأهيلهم بطريقة تناسب المناخ الدعوي في أفريقيا وهؤلاء يقول عنهم الدكتور السميط:

(بالنسبة للدعاة نحن لا نقبل بأن يكون حاصلًا على مؤهل جامعي فقط ، بل دائمًا ما نعقد الدورات التدريبية لهؤلاء الدعاة وتشمل الدورات التأهيلية أيضًا إخواننا العرب الذين يعملون معنا، مستهدفين بهذه الدورات الارتقاء بمستواهم الدعوي.

فالداعية يجب أن تُنمّي معلوماته حتى يتحمس للعمل الدعوي باستمرار؛ وفي هذه الدورات التأهيلية نقوم بدعوة بعض المشايخ من البلاد العربية كي يدرسوا للخريجين الجدد القضايا الشرعية وطرق الدعوة التي تناسب منطقتهم.. اتخذنا منهجاً لا نحيد عنه وهو أننا لا نرسل الدعاة إلى دول الخليج أو مصر لتعليمهم، والسبب أنهم يعيشون حياة الدعة والرفاهية فإذا عادوا صعُب عليهم التعايش مع الواقع الصعب للدعوة في منطقتهم هذه، فعمدنا إلى تعليمهم في بلادهم وبيئتهم ذاتها حتى لا يتعودوا على حياة مختلفة).

وقد حدث أن تأخر علينا الدكتور السميط يومًا فلما سألته اطمئنانًا عن سبب التأخر أخبرنا أنه نظرًا لأن الظلام كان مخيمًا على المنطقة، والطريق غير ممهد، فقد اضطر للمرور بين الأشجار والأعشاب، وفجأة وجد نفسه محاطًا بمستنقع من كل مكان، وقد حاول الخروج من المنطقة، لم يكن خائفًا من الأفاعي ولكنه يكره

الأفاعي رغم أن أغلب الأفاعي، غير سامة في مدغشقر بحسب قوله؛ بعدها يسر الله له فوجد سيارة بالطريق أوصلته.

فحينها سألته عن أحوال الدعاة ومعيشتهم مع بعضهم في مدغشقر، خاصة أن بعضهم من مدغشقر والبعض الآخر من أصول عربية، ويقضون سنوات طويلة في الدعوة إلى الله؛

فأجاب الدكتور السميط:

(الذي بدأ العمل هنا أخ جزائري حافظ للقرآن اسمه بن عيسى رجل فاضل، مكث في إحدى القرى فترة، ثم نقلناه إلى العاصمة؛ وهو الذي وضع الأسس للعمل هنا، الآن هو مدير مركزنا فى العاصمة.

أما الإخوة العرب الآخرون فمنهم من أمضى سنتين، ومنهم من أمضى خمس سنوات، الميزة أن العرب سرعان ما يتحملون، ورواتبهم نسبيًّا لا بأس بها.

بالنسبة للمحليين -وهذا هو مربط الفرس - أغلبهم يرفضون أن يأتوا لهذه المنطقة لأنها منطقة مستنقعات، منطقة بعوض، منطقة أمراض، منطقة لا توجد فيها خدمات، فالكهرباء تنقطع عندنا أربعة إلى خمسة أيام متواصلة. والماء ينقطع عندنا أيضًا؛ أنا أذكر قبل مدة كنت أسكن في المدينة وانقطع الماء عنا خمسة أيام، فما كنا نستطيع دخول بيتنا من الرائحة الكريهة سواء رائحة المطبخ، أو رائحة المرافق الصحية.

كما لا توجد المناديل الورقية ولا تباع أكياس النايلون، ولا توجد مفرمة لحم، وعندنا مشكلة في شحن البطاريات وغيرها؛ ويوم الأحد لا يوجد خبز، أشياء كثيرة لا تستطيع تحصيلها هنا.

أنا أتكلم عن الضروريات ناهيك عن الرفاهيات مثل الزيتون، زيت الزيتون، الصابون الجيد، الشامبو الجيد، كل هذا أنساه تمامًا.

لذا، فإن الدعاة المحليين المتخرجين خاصةً من دول الخليج يفضلون الجلوس في العاصمة، فمنطقة الأنتيمور التي أعيش فيها يضرب بها المثل في الصعوبة، هكذا يقولون، لكن بالنسبة لي فأنا سعيد فيها.

فأنا ما هاجرت إلى هذه المنطقة، وتركت أهلي، وتركت بلدي، وتركت أولادي إلا لأنني مستلذ).

لقد عشت هذه المعاناة في مدة شهر تقريباً، ورأيت شظف العيش وصعوبة الحياة، فالكهرباء تنقطع باستمرار، والأغذية قد تنعدم من السوق إذا انقطع السبيل بين البلدة والعاصمة، كنت والفريق العامل عند العودة من التصوير نتحرى أن لانتأخر حتى ندرك العشاء عند المطعم الوحيد في البلدة، وهو مطعم فرنسي داخل فندق صغير، ولكن ما أكثر ما نأتي ثم لانجد طعاماً فنبيت جميعاً طاوين من الجوع.... فكيف الحال بمن هم في هذه البلدة من الدعاة ؟ اللهم جازهم عنا خير الجزاء.



وقد لفت انتباهي أثناء صحبتي للدكتور السميط أنه كلما تمت دعوة قرية من القرى، بدأت المسئولية تصعب، إذ يحتاج هؤلاء إلى متابعة ودعاة، لذا سألت الدكتور السميط؛ في الغالب إذا أرسلت إليهم داعية هل يسكن بالقرية؟؛

فأوضح لنا د. السميط أنه:

(يسكن بالقرية ويبدأ في الدعوة ليس في قرية واحدة ولكن في القرى المجاورة أيضًا. فما من داعية إلى الله يأتي إلى قرية إلا ويسلم على يديه سكان ثلاث أو أربع قرى مجاورة.

فالداعية يكلفنا بعض الشيء فهو يكلفنا حوالي ستمائة ريال في الشهر، أو خمسة وسبعين ألف ريال وقف على راتب الداعية مدى الحياة، يعطيه الإنسان مرة واحدة، ونبدأ في استثماره، وبعد سنة نكفل له داعية، ويستمر إلى أبد الآبدين إن شاء الله في الدعوة وسط القرية، وفى نشر الإسلام في القرى المجاورة، ولو قدر وحدث مكروه للداعية، أو انتقل من مكانه، نقوم بتعيين داعية مكانه من ريع الوقف).

الداعية التائب

حدثنا الدكتور السميط عن الداعية ناصر عبد الرزاق الداعية التائب، الذي ركل المال الحرام ودخل الإسلام، ورضي بالقليل. يعيش في مدغشقر، وقد وُلد من أبوين أحدهما نصراني وهو الأب.



أما الأم فتحمل اسم الإسلام فقط، انتقل مع عائلته إلى ماجونكا، والتي يقطنها أغلبية مسلمة، وهو ابن تسع سنوات، وهناك أعلن والده الإسلام فتبعته العائلة- ولكن بالشكل فقط.

وفي عام ١٩٧٩مـ حصل على منحة دراسية للأزهر، وبقي في مصر عدة سنوات يدرس في الأزهر، حتى صدر قرار إداري من جامعة الأزهر بأن على كل طالب أن يدفع تكاليف الكتب الدراسية، فلم يستطع ناصر تدبير تلك النفقات، فرجع إلى بلده ثم ذهب إلى ليبيا ليكمل تعليمه في كلية الدعوة الإسلامية بالبيضاء، حتى أنهى تعليمه الجامعي، وعاد وعمل مع جهة حكومية في وظيفة مدرس.

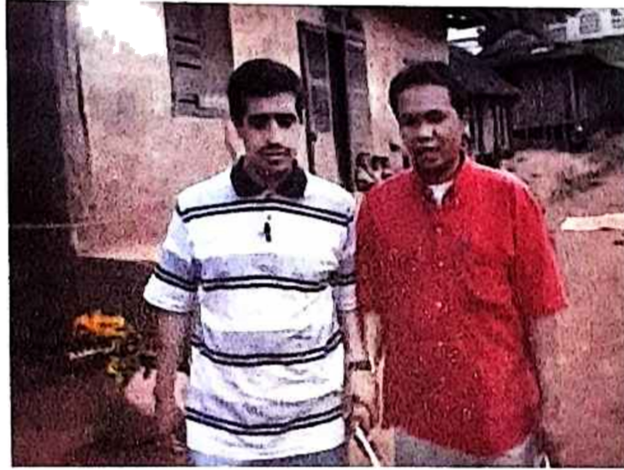
ولكن هذه الجهة لم تكن تعطيه راتبه أولًا بأول وكان يجلس ثمانية أشهر بدون راتب، فضاق عيشه، فترك التدريس، وانصرف إلى السياحة للعمل كدليل سياحي كونه يجيد الفرنسية، وامتلأت حياته بالمغامرات والفساد الأخلاقي؛ لدرجة يقول فيها عن نفسه أنه يستطيع أن يؤلف كتبًا عن فساد هؤلاء السياح، ويقول كنت ممسوخًا ألبس مثلهم، وأحمل في نفسي متناقضات.

ويقول (رأيت كل المنكرات وشعرت أنني لست في مكاني الطبيعي، كيف أنني خريج كلية الدعوة الإسلامية، وها أنا أخدم الفجور، كنت يوماً من الأيام مع وفد سياحي فجئت للجنة مسلمي أفريقيا في العاصمة، وطلبت منهم العمل، فرفضوا وقالوا من يريد أن يعمل في الدعوة تكون هيئته هكذا؟؛ لأنني كنت أرتدي بنطلونًا قصيرًا ممزقًا، وشعري مصفف مثل السياح، ثم عدت مرة أخرى للعمل بالسياحة لمدة سنتين، حتى منّ الله عليّ بلقاء بعض الدعاة الذين انتشلوني من هذا المستنقع، ثم التحقت بدعاة لجنة مسلمي أفريقيا).

وقد أسلم على يد الداعية ناصر عبد الرزاق عدة آلاف من أبناء الأنتيمور؛ وهو يخرج للدعوة أربع مرات كل شهر مع مجموعة من طلبة المعهد الشرعي ضمن برنامج أسلمة قبائل الأنتيمور.

ناصر يتحدث عن ألذ فترات حياته تلك التي يرى فيها من يدخل الإسلام، ويسمع فيها من يردد لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويقول : إنها تساوي عندي أموال الدنيا كلها.

قصة إسلام الداعية أحمد رينا



أحمد رينا بتحية الإسلام تحول من الظلام إلى النور هكذا يقول لنا؛ فقد كان واقفًا مع مجموعة من أصدقائه فمر عليهم شخص، سلم عليهم بتحية الإسلام - السلام عليكم ورحمة الله وبركاته- يقول رينا: لم أفهم التحية لكنها كانت جميلة فهذه أول مرة أسمعها، رأيته يدخل المسجد، فاستغربت؛ فقمت بالتعرف عليه، فأعطاني نسخة من ترجمة معاني القرآن، رجعت إلى المنزل وقرأت معاني القرآن، وكانت النقلة في حياتي.

وعن أحمد رينا يقول الدكتور السميط:

(أحمد رينا من قبيلة العاصمة، وهي أكثر قبيلة لا تحب الإسلام، والمعروفة بقبيلة الميرنا أو الهوفا، وهى القبيلة الحاكمة منذ سنوات طويلة، وهي تحكم مدغشقر، فهي قبيلة قوية جدًا، وهذه القبيلة عادةً ما ترفض الإسلام، لكن أحمد رينا رزقه الله الهداية وأسلم وهو طالب في الثانوية، وتحمس للإسلام، وقد ذهب

للمدينة المنورة سنتين.....بعد أن أسلم ذهب لإمام المسجد، وإمام المسجد كان رجلًا هنديًا فاضلًا، فحدثه عن الإسلام، يقول أحمد رينا أحببت إمام المسجد، وأحببت الإسلام بسبب هذا الإمام؛ وهذا يذكرنا دومًا بأن المؤمن يجب أن يحب الله ويحبب الناس إلى الله.



ويستمر الدكتور السميط : إن الإمام توفاه الله بعد ذلك؛ فوقف أهل أحمد ضده، وحاربوه، والمجتمع كله حاربه، فذهب للمدينة المنورة ومكث بها عامين، ثم رجع إلى هنا فعمل معنا في هذه المنطقة، بعدها أرسلناه إلى السودان، بعد أن حصلنا له على منحة من السودان لاستكمال الدراسة، والحمد لله استكمل دراسته وحصل على البكالوريوس في التربية).

بدأت حياة جديدة لأحمد رينا لينتقل إلى مجال الدعوة فيصبح أحد الدعاة الكبار في مدغشقر، ففي سنة واحدة أسلم على يديه عشرات الأشخاص، ثم استمر في الدعوة بعد تخرجه العلمي، لتكون الأمنية الكبرى أن يرى الدعاة في بلده مدغشقر، وأن تنتشر دعوة الإسلام بين أهل الجزيرة.

يقول لنا أحمد رينا عن نفسه:

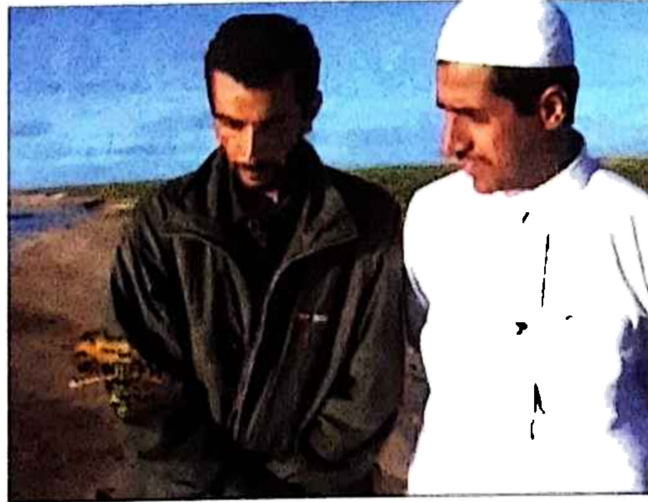
(الله سبحانه وتعالى هداني إلى الإسلام لأنني ما كنت أتوقع دخولي الإسلام،

فعندما كنت صغيرًا كنت أسير إلى المدرسة، لم أكن أفكر أنني سأكون على هذا الحال. ولكني كنت أفكر دائمًا في بعض القضايا مثل لماذا خُلقنا؟، لماذا الله سبحانه وتعالى أوجدنا؟، لماذا لا نتجه إليه؟، وهكذا؛ فأخيرًا فتشت عن الحقيقة، وكانت الحقيقة في الإسلام، وعندما دخلت الإسلام رفضت أسرتي هذا الأمر، وهي أسرة نصرانية ليست فقيرة ولا غنية ولكنها والحمد لله متوسطة.

الوالد والوالدة من النصارى، ولكنني والحمد لله تحدثت معهم عن الإسلام، وقلت بأن عيسى عليه السلام ليس ابن الله؛ وهنا تعجبوا واستغربوا كلامي، واستفهموا كيف؟!، فأتيت لهم من القرآن دليلًا على ذلك، وقلت لهم عندكم إنجيل تعالوا نتحدث عما عندكم وما عندنا، وننظر إلى الفرق؛ وشرحت لهم الإسلام وتأثروا. لكن المشكلة أنهم قالوا نحن نتوجه إلى الله فقط، ولا ندعو عيسى عليه السلام؛ حقيقة هم لا يريدون دخول الإسلام لأنهم يخافون من القبيلة؛ فهذه هي المشكلة الحقيقية).

حوار مع داعية

أستاذ محمد بن طالب أحد العاملين في المجال الإغاثي الإنمائي في أفريقيا لسنوات عديدة؛ سألناه عن بعض المواقف الغريبة التي مر بها أثناء عمله الإغاثي والدعوي فقال:



(في الحقيقة هناك عدة قصص قد وقعت لي، وعدة مشاهد، أغربها؛ عندما نوينا أن نفتتح مركزًا إسلاميًا في إحدى الدول الإفريقية، سمعت إحدى أمهات الأيتام بأننا سنفتح المركز الإسلامي وخافت أن لا تجد مكانًا لابنها اليتيم، فمشت أكثر من خمسة وأربعين كيلو مترًا مشيًا على الأقدام هي وابنها اليتيم، وعندما وصلت إلى المركز وجدنا أن الابن أو اليتيم قد تورمت قدماه من كثرة المشي، فاعتقدنا أنه معوق، والحمد لله بعد التدليك والمعالجة تعافى اليتيم، والحمد لله أدخلناه المركز.

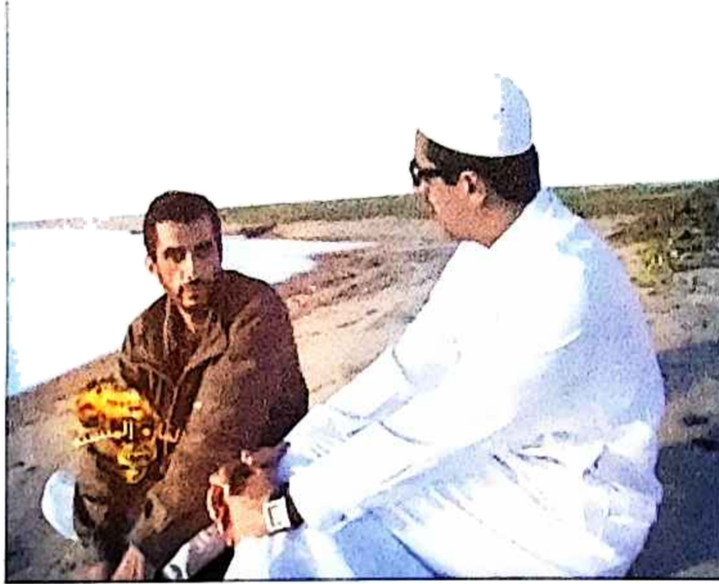


أذكر مرة أخرى كنت أعمل في منطقة شبه معزولة؛ تنقص فيها الكهرباء، وهى منطقة غينيا الغابية، وكانت تحيطنا حروب من كل جهة، فقد كانت حروب في كوديفوار، وليبيريا، وسيراليون، وفي كثير من الأحيان كانت تقع بعض المشكلات الأمنية، ولكن الحمد لله، الله عز وجل دائمًا كان ينجينا منها، وكان دائمًا يستر العمل الإسلامي هناك، وهذا فضل من الله عز وجل).

وهنا سألت الأستاذ محمد عن كيفية التعايش مع العمل في ظل هذه الصعوبات؟

فأجابنا بقوله:

(في البداية يواجه الإنسان مشكلة التعود على هذا النمط من الحياة، ولكن مع مرور الزمن يستطيع أن يتأقلم مع الجو الجديد ويتكيف معه، ويستطيع أن يساير هذه الأمور ويتماشى معها؛ أنا في البداية كنت لا أتصور أنني أستطيع أن أعيش في منطقة لا توجد فيها كهرباء مثلًا، ولكن مع مرور الزمن أصبحت الكهرباء بالنسبة لي شيئًا ثانويًا أستطيع أن أستغني عنها، وأعيش وأتكيف كما يعيش الأخوة الأفارقة في هذه البلدان).



سألت الأستاذ محمد عن رؤيته لانتشار الإسلام في هذه البلدان؟

فأجاب بقوله:

(نحمد الله عز وجل، الذي وفر لنا هؤلاء المتبرعين خاصة من دول الخليج، والذين ساهموا مساهمة جد كبيرة لنشر الدعوة الإسلامية في هذه المنطقة.

وأيضًا نجد أن الإخوة الأفارقة لديهم فطرة وقبول للإسلام، فلم نجد صعوبات كبيرة في دعوتهم للإسلام، الأمر يحتاج فقط منا دفعة بسيطة جدًا لكي يتقبل هؤلاء

الأفارقة هذه الدعوة، ويتقبلون كلمة التوحيد، وكم من مرة نجد إسلام أشخاص وعائلات بل قرى تسلم كاملة والحمد لله، وهذا فضل من الله عز وجل).

سألت الأستاذ محمد عن المشكلات التي واجهتهم في الدعوة في ظل العمل التنصيري وانتشار الكنائس؟

فأجابنا بقوله:

(نحن سياستنا في الدعوة أننا لا نتصادم مع الغير، فدعوتنا كدعوة النبي عليه الصلاة والسلام هي الحكمة والموعظة الحسنة، فما ينبغي أن نتصادم مع المسيحيين، فهم لهم دينهم ولنا دين، ونحاول دائمًا أن نعطي الصورة المشرقة للإسلام، كدين تسامح، ودين وحدة، ودين يدعو إلى الإخاء، بعيدًا عن كل أشكال التطرف والعنف).

قلت للأستاذ محمد: بعض التنقلات واجهنا فيها صعوبة كبيرة؛ فأحيانًا كنا نقطع الأنهار بالقوارب الصغيرة، وأحيانًا سقطنا في أوحال كثيرة، فكيف اعتدتم أنتم على مثل هذه الأشياء؟.

يقول الأستاذ محمد:

(أتذكر هنا قصة سيدنا بلال رضي الله عنه، عندما كان يُعذب في مكة، وسُئِل هل كنت تحس بالعذاب؟، فقال لهم لا: لأن حلاوة الإيمان تغلبت على مرارة العذاب. فالإنسان عندما يتعود على هذه الحياة، ويعرف أن الله عز وجل يأجره على هذا العمل، فإنه يتلذذ بهذه الأمور لأن ثوابه عند الله عز وجل، ويكفي أن تعلم أخي الكريم أننا نحن شباب بينما الدكتور كبير السن ومريض ومع ذلك يتحمل من الصعاب أكثر مما نتحمل، فإذا رأيناه ورأينا جلده وصبره على الدعوة تشجعنا وبذلنا).

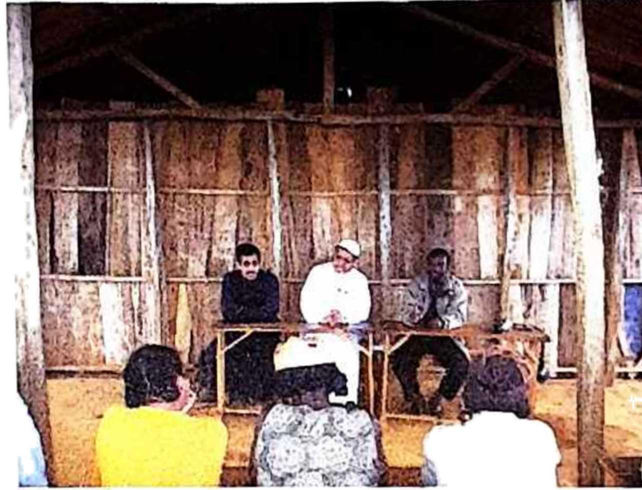
في نهاية لقائي بالأخ محمد بن طالب هل عندك رسالة تحب أن توصلها للمسلمين؟

فقال:

(أولًا رسالتي للشباب الإسلامي أنه ينبغي عليه أن يعطي الصورة الحقيقية للإسلام، لأن الإسلام شُوه في كثير من وسائل الإعلام الآن. الرسالة الثانية التي أقدمها أيضًا للإخوة المتبرعين في الخليج عليهم أن يستمروا في الدعم لإخوانهم في أفريقيا، فخير دليل على ثمرة هذا الدعم، رجل الدعوة وخادمها الدكتور عبد الرحمن حمود السميط، الذي أنكر ذاته، وتفرغ للعمل الدعوي في أفريقيا، وأعطى صورة حية لكل الأخوة المتبرعين وكل الإخوة في دول الخليج العربي).

ومما لاحظته في رحلتي وأحزنني أن بعض هؤلاء الدعاة هم ممن فروا بدينهم من ملاحقة الأنظمة القمعية البائدة وبخاصة في ليبيا وتونس، فهم لم يستطيعوا الهرب إلى دول عربية أو أوربية، فتفرغوا للدعوة بين مدغشقر وكينيا وتنزانيا وغيرها فنفع الله بهم نفعاً عظيماً.

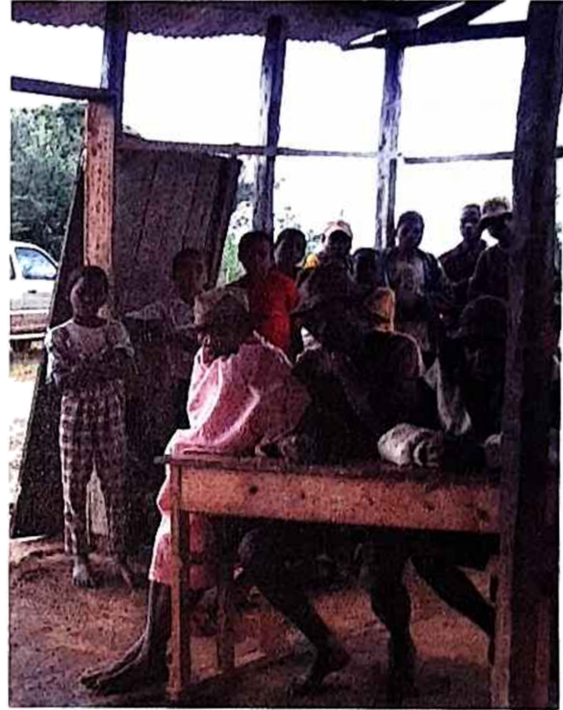
مشاهد من دعوة السميط بمدغشقر



الدعوة إلى الله مطلب عزيز يسعى إليه الخيرون، ويتنافس في سبيله المؤمنون يرجون رحمة الله؛ إنها الدعوة التي استحقت الأمة الخيرية بسببها؛ فهاهم الدعاة يخرجون صباح مساء للدعوة إلى الله، يتحملون المصاعب، يسلكون الطرق الوعرة من أجل الدعوة؛ والدكتور عبد الرحمن السميط واحد من هؤلاء الذين وفقهم الله وشرفهم بالدعوة.



وقد سعدنا بصحبة الدكتور السميط في كثير من الملتقيات الدعوية ومنها ما حضرناه في جزيرة مدغشقر مع عدد من أبناء القبائل[1]؛ والذي قدمنا الدكتور فيه السميط بهذه الطريقة:





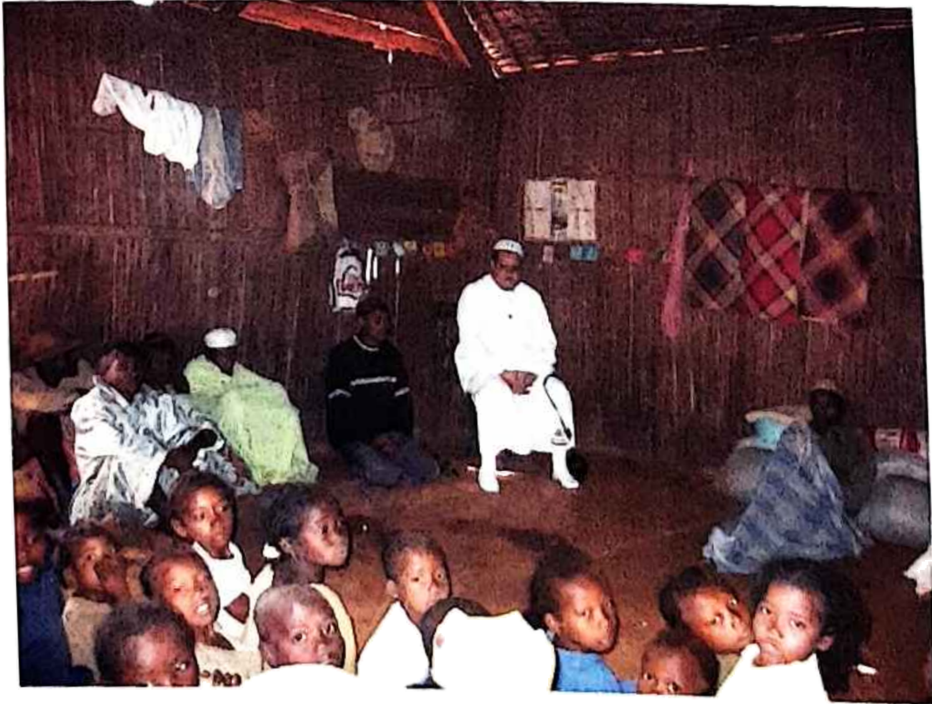
«أنا اسمي عبد الرحمن وهذا اسمه فهد».

ثم قام فيهم خطيبًا وقال:

(كلانا من أرض مكة، ومكة هي التي جاء منها أجدادكم؛ أنتم أصلكم عرب مسلمون، وجاء أجدادكم من هناك إلى هنا قبل مئات السنين، ومع الزمن ومع الاستعمار قُضِي على الإسلام، ولكن بقايا الإسلام لازالت موجودة عندكم أيها الأنتيمور، فأنتم لا تأكلون الخنزير، وأنتم تلتزمون بالذبح الشرعي كما يفعله

(١) يحضر أفراد القبائل إلى الملتقى الدعوي إذا سمعوا النداء بالصافرة، حيث يعلمون أن الدعاة قد حضروا ليستمعوا إلى شرح يسير عن الإسلام.

المسلمون بالذبح بين الشريانين؛ وأنتم عندكم كثير من العادات التي هي نفس عادات الإسلام، وهذا مما تركه لكم أجدادكم. لكن مع الأسف نسيتم لغتكم العربية ونسيتم دينكم الإسلامي؛ فالإسلام يقوم على خمسة أركان؛ نحن نؤمن بإله واحد قوي قادر على كل شيء؛ هو الذي ينزل المطر من السماء فيخرج من الأرض ذات اللون البني شجراً أخضر؛ هو الذي يشفينا بعد المرض ؛ هو الذي يميتنا ثم يبعثنا يوم القيامة ويحاسبنا بعد ذلك؛ هذا الإله ليس له زوجة ولا ولد ولا مثيل أبدًا؛ إذا عبدناه حق العبادة أعطانا السعادة في القلب؛ وقد جعل الدنيا دار امتحان لنا. ونؤمن بأن محمدًا ﷺ هو نبي الله وعبده، وهو نبيكم أنتم؛ جئنا لنخبركم أن محمدًا ﷺ إنما هو نبي أرسله الله لينقذنا من النار، ويدخلنا الجنة إذا اتبعناه. والمسلمون يؤمنون بالصلاة خمس مرات في اليوم وبصيام شهر كامل من الفجر إلى المغرب؛ وباحترام آبائنا وأمهاتنا، والسلام عليكم ورحمة الله).



وقد استهدفنا الدكتور السميط بسؤال توضيحي عن انتشار الإسلام في هذه المنطقة، وإقبال القوم على الدخول فيه في ظل الجهود الكنسية الكبيرة، فأوضح لنا الدكتور السميط قائلًا:

(أنا أعتقد أن هناك إقبالًا على الدخول في الإسلام، كنت في السابق أقول إن عدد من يدخلون الإسلام يوميًا في هذه المنطقة ما بين ثلاثة إلى خمسة أفراد، لكني أعتقد أن العدد أكبر من هذا بكثير؛ فعلى سبيل المثال قبل شهر من لقائي بك أسلمت ثلاث قرى كاملة ولله الحمد، وأذكر أنني كنت في رحلة إلى قرية من القرى وزرناهم وأسلموا، ونظمنا لهم دورة للمهتدين الجدد، وبعدها أسلمت القرى المجاورة؛ ومما يلفت الانتباه أن المهتدين الجدد الذين لا يعرفون بعد شيئاً عن الإسلام قرروا أن يذهبوا مع الدعاة إلى القرى المجاورة، ومروا على القرى، والحمد لله أسلمت القرى كلها، خمس أو ست قرى أسلمت في فترة بسيطة جدًا.

مما أذكره أيضًا أنني ما زرت قرية إلا وأسلم فيها عدد من الناس، خاصة القرى التي كان قد سكن فيها مسلمون، أو من سمعوا قليلًا عن الإسلام. وهذه أعظم سعادة يحس بها الإنسان ومن هنا جاء حديث الرسول ﷺ (فوالله لَأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ)[1].

وتأكيدًا على كلام الدكتور السميط فقد دخلنا إحدى القرى، وبكلمات بسيطة ودرس مختصر قدمه الدكتور لهم أسلمت القرية وهم جلوس معنا في مجلس يتسع لقرابة خمسين من الرجال ومثلهم من النساء والأطفال.

أيضًا عندما دخلنا قصر الملك[2]، جمع الملك أفرادًا من القرية ودعاهم الدكتور

---

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث سهل بن سعد الساعدي (ح ٢٩٤٢) ورواه مسلم .
(٢) قصر الملك يختص بأشياء هو الوحيد تقريبًا الذي عنده هذه الأشياء في القرية فالقصر به أوانٍ للماء كبيرة، وحصير خاص، وعصي للعقاب.

عبد الرحمن السميط في كلمة طويلة للإسلام، فأسلم عدد كبير منهم، وشرفنا بتلقينهم الشهادة دخولًا للإسلام.

وقد قدم مستشارو الملك شكرهم وسعادتهم وفرحهم الشديد بهذه الزيارة التي اعتبروها مباركة ورأينا كيف ارتسمت السعادة والفرح على وجوههم، ونقل لنا المترجم أنهم مقتنعون بأمر الإسلام، وأن أصولهم عربية، وأنهم عاشوا سنوات من الضياع ولم يكن هناك من يوقظهم ويذكرهم بهذا الأمر، وهذا راجع للاستعمار، وقد كرر الملك ومستشاروه شكرهم آملين تكرار الزيارة وسائلين المولى عز وجل أن تكون هذه الزيارة مباركة لنا ولهم.

كما طلبوا في نهاية الزيارة بناء مسجد في القرية، فأوضح لهم الدكتور السميط عبر المترجم أن (مجموعته تبني المسجد إذا أسلمت القرية عن بكرة أبيها؛ فقوموا بالتعاون مع الملك بدعوة البقية الباقية من أفراد القبيلة للدخول في الإسلام، وبعد شهر إن شاء الله سنأتي إلى هنا، فإذا وجدنا أن القرية كلها أسلمت، فسنطالبكم بجمع الرمل، ونبدأ في البناء).

بعدها قال لهم الدكتور السميط:

(إن أهلكم في مكة أرسلوا هدية إلى الملك وهى ثوب مثل الثوب الذي ألبسه[1]، وباسم أهلي وأهلكم في مكة أقدم هذه الهدية إلى الملك)، وقام الدكتور السميط وقدمها بنفسه إلى الملك. وأردف د.السميط قائلًا (نحن جئنا إلى هنا بفريق تليفزيوني لأن أهلنا في مكة قالوا نريد أن نتعرف على قبيلة الأنتيمور وعلى عاداتهم، ونريد من

---

(١) للعلم الدكتور يشتري كميات من الثياب بسعر رخيص جداً ويوزعها هدايا على الملوك والمستشارين الذين يعتبرونها غالية لأنها تذكرهم بلباس اهلهم وأجدادهم في مكة ، وقد اشترى الملابس أحد التجار وقدمها للجمعية لهذا الغرض .

الملك أن يتكلم عن تاريخهم).

نحن كفريق تليفزيوني أفراد عاديون بالنسبة للملك، لا يمكن أن نكلم الملك إلا بعد أن نكلم المستشارين.



تسأل المستشار هل يمكن أن أكلم الملك؛

المستشار يعطيك الإذن بمكالمة الملك، والسلام عليه؛

استشرنا الملك هل يلقي كلمة؟

سأل المستشارين؛

أذنوا له، ثم ألقى الكلمة.



بعد ذلك أجرينا لقاءً مع ملك القرية وتحدثنا معه في هذا اللقاء بعد إذن المستشارين. حيث شدد الملك على بناء المسجد وأنه في حال بنائه فإنه وأهالي القرية مستعدون لإحياء هذه المشاعر التي جاءتهم من عند أجدادهم.



وقد عبر مستشار الملك عن دهشته وتعجبه من أن نسل أجداده جاءوا من مكة، من بعيد من أجل كلمة واحدة هي الأخوة وإحياء الدين؛ وقال:

(إنه لشعور جميل أن نشعر بأن إخواننا من بعيد يتذكروننا، ولا ينسوننا في المحن، ونتمنى منهم بناء مسجد حتى نحيا هذه الحياة الطيبة التي عاشها أجدادنا في ظل الإسلام دين أجدادنا).

أما مكابدته في سبيل الدعوة فضرب من ضروب الخيال وصورة من صور الإصرار الذي لا يجيده الا الافذاذ من الرجال، فقد كان رحمه الله من النوادر في تحمل المشاق والصعوبات في سبيل الدعوة، بل حتى أسرته كانت تعاني معه الأمرين ولكن بلذة الدعوة وفرح تحقيق الخير.

قال الشيخ محمد الخميس عن الدكتور السميط: (من صفاته: قوة التحمل، فالله عز وجل أعطاه قدرة على التحمل في ظني لم يعطها إلا لقلائل من الناس، قوة تحمل الدكتور جعلت كثيراً من الناس يتعبون في العيش معه، وجعلتهم ينفرون ويبتعدون عنه، كان يذهب إلى أكثر المناطق بؤساً وأكثر المناطق فقراً، وأسوأ المناطق تنمية؛ من أجل إطعام الفقير، وإسعاد اليتيم).

قال الشيخ بدر الراجحي: (كنا في ملاوي، وكان عندنا جولة نريد أن نزور فيها المرافق، وكان هناك مشروع للدكتور يريد افتتاح جامعة هناك، فكان يبحث عن المواضع والمناطق والأماكن بها، وفي تلك الفترة كان الدكتور يعاني من الحصى في الحالب، والحصى كما يقول من يعرفها وأصيب بها ألمها شديد جداً، والدكتور بطبيعته إذا سافرت معه فإنه كثير الفوائد، يعطيك تجاربه السابقة، ويتحدث معك، ويعطيك خبرته، ولا يبخل عليك بشيء، وشخصيته دائماً تحب هذه الحوارات، والنقاش معك مهما اختلفت أنت وهو، فكنا نخرج تقريباً من الساعة الثامنة صباحاً ولا نرجع إلا بعد غروب الشمس، وهكذا يومياً، فمن الساعة الثامنة صباحاً إلى الثانية عشرة ظهراً يعطيك الدكتور من كل الفوائد والتجارب، فإذا دخلت الساعة الثانية عشرة ظهراً سكت، ويبقى على هذا الحال حتى نرجع، لا يتكلم أبداً حتى نصل، فإذا وصلنا أخذ إبرة وغرزها في ركبته، وهي نوع من أنواع المسكنات، وهذه الإبرة مؤلمة جداً، فكان يغيب عنا عشر دقائق ثم يرجع إلينا، ويقول: هذه الإبرة من نعيم الدنيا، وقد كان يعاني من آلام الحصاة لكن لا يتكلم أبداً ولا يشتكي، حتى إذا أخذ هذا المسكن رجع حتى يتحدث معنا ويكمل الحديث، يضغط على نفسه في تحمل الألم، وهذه الصورة قد لا تصدق بوجودها، واستمر فترة طويلة في برنامجه هذا بلا كلل[وكان من المفترض أن تتوقف هذه الرحلة وهذا البرنامج عند كبر سنه وشدة مرضه ثم يكملها في وقت آخر، لكنه كان إذا دخل في برنامج فلا بد أن يكمله.

أنا أذكر أننا كنا سوياً بعد مجاعة الصومال الأخيرة فذهبنا وحاولنا أن ندخل إلى الصومال عن طريق الحدود الكينية، فكان الطريق وعراً جداً غير ممهد بل هو طريق صخري جبلي، واستمرينا فيه ما يقارب اثنتي عشرة ساعة، أنا لم أستطع أن أتحمل، وأتاني نوع من أنواع الغيبوبة أو الألم فسقطت بين يدي الإخوة، فتفاجأت لما استيقظت بعد اثنتي عشرة ساعة أن الدكتور السميط واقف فوق رأسي يحاول علاجي، وهو كان يعاني من حزمة آلام بما فيها القلب وألم في الكلى وارتفاع نسبة الضغط، وارتفاع في السكر، وانفصال في شبكية العين، وكان يلبس الجوارب لأجل ألا يسيل الدم من رجليه، وكنت أعتقد أن الذي أصابني هو تقلب في المعدة فقط.

لقد كان رجلاً عجيباً، يعمل ويرى أنه لا بد من تربية كل من حوله على العمل والتضحية والبذل).

قال الشيخ السميط رحمه الله : (في يوم من الأيام تعطلت سيارتنا في رحلة من رحلاتنا الدعوية، والسيارة قديمة، عمرها ست سنوات، وست سنوات في أفريقيا تعادل ست عشرة سنة في بلادنا الكويت، فتوقفت ولم تتحرك، فقدر الله أن مرت علينا شاحنة للكنيسة وأخرجتنا، ومرة من المرات تعطلت السيارة وانقطع حبل فيها فنزع السائق غطاء الرأس وربطها به، ثم انقطع مرة ثانية وربطه، ثم أصيب السائق وكل الإخوان معنا بالملاريا وكانوا على وشك الموت، وكنا في قرية وثنية ورائحة أهلها كريهة؛ لأنهم لا يعرفون النظافة مثل المسلمين، فكان دخولنا في كوخ من أكواخهم زيادة مرض على السائق ومن معنا من الإخوة.

وفي مرة كانت الدنيا مظلمة وطريقنا مسدود، دخلت بين الأشجار والأعشاب، وفجأة وجدت نفسي محاطاً بمستنقع من كل اتجاه، حاولت أن أخرج، فلم أستطع، وأنا أكره الأفاعي لكني لم أكن خائفاً منها، لأني أعلم أن أغلب الأفاعي هنا غير سامة في مدغشقر، ثم وجدنا سيارة في الطريق فأخرجتنا).

قال الدكتور سليمان شمس الدين: (كان يمتاز بالتواضع في دعوته؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف:٢٨]؛ فبعض الناس يريد أن يفعل الخير، لكن لا يستطيع العيش مع الفقير أو المسكين الذي ليس عنده شيء، يمشي حافي القدمين متواضعاً وبسيطاً ويمكن أن يتطاول عليك، ويمكن ألا تجد منه رائحة طيبة، لكن الشيخ كان رجلاً متواضعاً.

الأمر الآخر: أن لديه همة عالية متفانية من أجل هذه القضية، فيستغرق وقته كله من أجل هذه القضية، وأنا أقول دائماً في المجالس: الذي يريد أن يسلك العمل الخيري فليأخذ الدكتور عبد الرحمن السميط قدوة؛ لأنه يشتغل فيه طوال وقته، قد يتصل عليه شخص فيرد على التلفون فيجد أن هناك محتاجاً، فالتواضع والتفاني مهمان بالنسبة للعمل الخيري).

قال المستشار عبد الله العقيل: (كان بفضل الله عز وجل يقوم بهذا العمل بكل تفان وجدية وقد أصيب أكثر من مرة بأزمات قلبية أثناء سفرياته، وأذكر مرة حين جيء به إلينا في الرياض وأدخل المستشفى بإشراف الدكتور محمد الفقيه، وعملت له عملية، وحثه أخونا الدكتور محمد الفقيه بأن يهدأ قليلاً، وأن يرفق بصحته، ويبذل جهده في إطار الممكن، ولكنه لم يستمع لذلك، وتكررت معه مرات ومرات أن دخل المستشفى في أماكن شتى، ولكن همته وعزمه في تقديم الخير للناس لا يتوقف ألبتة، فهمه الأساس هو تقديم الخير للناس، وقد وجد بفضل الله عز وجل استجابة كبيرة من أهل الخير والمحسنين في ثقتهم به، وبخاصة في الكويت).

قال الدكتور سليمان العلي: (كلما كنت أقابله في مطارات المملكة العربية السعودية وجدته إما ذاهباً إلى المستشفى التخصصي في جدة أو ذاهباً إلى المستشفى التخصصي

في الرياض، فقال لي: يا دكتور! أنا باختصار كتاب للأمراض يدرّس في كلية الطب، فلا تسألني عنها لأني تعودت وتأقلمت معها).

قال الشيخ نبيل العوضي: (يقول لي الدكتور السميط رحمه الله : أحياناً أمشي في مستنقع لا يظهر مني إلا رأسي أنا وبعض أصحابي، أدخل مستنقعاً فيه من الدواب والهوام، وربما تماسيح وثعابين، وغير ذلك من الحشرات ما الله به عليم، لكننا نضطر أن ندخل هذا المستنقع لنجوزه؛ لأن هناك قرية خلفه نبلغها دين الله عز وجل).

قال الدكتور محمد الخضيري: (كان يتميز بعدة صفات: الصفة الأولى: كان رجلاً جاداً من الدرجة الأولى، وكان بحرصه وسعيه الدؤوب في عمله في أفريقيا يمضي أكثر العام في أرض هذه القارة ليجوبها شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، يتفقد المساجد والمدارس وملاجئ الأيتام، وأعمال الدعاة، ولا يدع مكاناً إلا ويذهب إليه بنفسه، وقلّ أن ندخل بلداً أو منطقة في أفريقيا إلا ويقال لنا: قد سبقكم إلى هذا المكان الدكتور عبد الرحمن السميط، فقد كان نموذجاً واضحاً وبارزاً للجد في الحياة.

الصفة الثانية: التضحية، ضحى هذا الرجل بكل شيء من أجل تحقيق هدفه وسعيه لنصرة دينه، ضحى بصحته، وضحى براحته، وضحى بماله، وضحى بحقوق أولاده في البقاء بينهم؛ من أجل أن يصل إلى هدفه الذي كان يسعى إليه، ضحى رحمه الله، وكان مثالاً للتضحية فيما قدمه للأمة، وما قدمه لأفريقيا بشكل خاص.

الصفة الثالثة: من الصفات التي تميز بها الدكتور عبد الرحمن السميط صفة التركيز على العمل، وعدم الاستجابة لما يحدث في أنحاء هذه الأمة من آلام ومشاكل بحيث كان مركزاً على أفريقيا، ففي عهده وفي الوقت الذي عاش فيه وعمل فيه في أنحاء أفريقيا كانت هناك مصائب للأمة في مواطن أخرى، في أفغانستان، وفي

دول كثيرة جداً، ومع ذلك لا يعرف أن الدكتور عبد الرحمن انشغل بغير أفريقيا، قد تكون له مساهمات خفية وخفيفة، لكن عمله الدائم والدؤوب كان موجهاً إلى المنطقة التي جعلها هدفاً له؛ لأنه يعلم أن التركيز هو الذي يوصل إلى المقاصد، وأن الإنسان متى شتت نفسه بين الأعمال والمشاريع والمناطق والدول سيضعف أثره، وفي النهاية لن يصل إلى مقصوده، ولن يحقق مراده من عمله.

الصفة الرابعة: من الميزات التي تميز بها الدكتور عبد الرحمن وبشكل صارخ وواضح: الأمانة، كان يستشعر الأمانة في أموال المتبرعين التي تعطى له أو تودع عنده، أو يتبرع بها لمشاريعه، فقد كان حريصاً عليها أشد الحرص، وكان يدقق في حسابها، وكان إذا ذهب رحمه الله إلى البلدان المختلفة في أفريقيا يحاسب الناس محاسبة شديدة على ما صرفوا وعلى ما أنفقوا، وكان شديداً حتى في الصرف على نفسه، وفي المواقع أو المواطن التي يرتادها، كان كثير من الإخوة عندما يرافقونه لا يحب أن يسكن في الفنادق الفخمة، بل كان يذهب إلى دار الضيافة المعدة في الجمعية أو المؤسسة التي أنشأها أو أنشأها غيره؛ لأنه يريد أن يوفر القدر الكبير من أموال المتبرعين، كان يركب سيارات قديمة جداً، وكان أيضاً يأكل مما يأكله الناس، لا يحمل معه طعاماً فاخراً أو غير ذلك من الأشياء التي قد يصطحبها بعض الناس معهم عندما يجوبون أفريقيا، كل ذلك يدلك على مدى الأمانة التي تحلى بها هذا الرجل، وكسب بها ثقة المتبرعين، وبالفعل فقد كان كثير من الناس يضع ماله عند هذا الرجل العظيم وهو مطمئن أن هذا المال سيصرف فيما بذل له، ولن ينقص منه شيء أو يؤخذ منه شيء).

يقول الشيخ محمد الخميس : (في حادثة ربما لم يتكلم عنها هو؛ لأن المرض لم يسعفه أن يتكلم عنها، وذلك أنه قبل مرضه بعشرة أيام أو أسبوعين، كان في أفريقيا في كينيا، وسمع عن قرية نائية في تنزانيا في مدينة بيكوبا أن فيها حضارم

تنصروا وغيروا دينهم، فقرر الذهاب لهذه القرية وأن يعمل لها شيئاً، وكان قد تجاوز السبعين وفيه الكثير من الأمراض، فجلس في هذه القرية يأكل ويشرب معهم، ويسكن معهم لمدة أسبوعين، حتى قال بعض الأطباء -وكل شيء طبعاً بيد الله- أن تعبه في هذه القرية في هذه الرحلة ربما كان من أسباب مرضه الحالي).

ماجونقا.. كعبة مدغشقر

تقع مدينة ماجونقا في الشمال الغربي من جزيرة مدغشقر، وتُسَيّر إليها رحلات صغيرة من العاصمة؛ وتُقطع المسافة في مدة أربع ساعات تقريبًا.

وهي تتميز بكهوفها الكثيرة، وشلالاتها العديدة، والسكان هناك يعتبرونها سرًّا مهمًا في حياتهم.

وهناك مجموعة من المعابد المقامة في أحد الكهوف المقدسة عندهم.

وهناك أيضًا على بعد حوالي خمسة عشر كيلو مترًا من المدينة تقع القرية التي توجد فيها الكعبة أو الدُّعاني.

وكلمة دُعاني مركبة من جزأين.... دعاء؛ ويعنى التوسل، وطلب الحماية من قوة عليا، وني؛ وتعني المكان؛ فالمعنى مكان التوسل أو مقصد الدعاء.

وتلك الكعبة يحج إليها مرة كل عام الملاجاشيون المقيمون في الغرب، أو الحجاج القادمون من جُزُر القمر.







يشبه الطواف بكعبتهم إلى حد ما مناسك الطواف حول الكعبة المشرفة، وهم يذبحون، ويدعون، وعند ارتكاب أي خطأ يذبحون الدم تكفيرًا للخطيئة.

والحج يبدأ في هذه المنطقة في نهاية شهر يوليو بمراسم رسمية، يحضرها الملك، ويفتتح الموسم؛ حيث يكون الحجاج قد توافدوا على العربات من كل مكان، ولا بد من أن يغتسل الجميع من ماء مُعين، ثم يلبس الحجاج ملابس خاصة، وهى إحرام، وتُذبح البقرة أمام الكعبة قربانًا لها؛ أما سور الكعبة من الخارج فهو من الخشب العادي المسقوف والمدهون بالزيت، وهو محاط بسياج لا يُسمح لأحد أن يدخل حدود الحرم إلا في الموسم وبحضور مسؤول الكعبة؛ وفي داخل كعبتهم هذه توجد ثياب الملك، وحقيبة قديمة، وطربوش، وطبل قديم مُهتَرِئ.



يقول د.السميط عن هذه البلدة:

(ماجونقا منطقة المسلمين، ومعناها مدينة الزهور، والحقيقة أنه لا توجد فيها ولا زهرة؛ الزهور الوحيدة في ماجونقا هي في مركزنا هنا. وعلى بعد خمسة عشر كيلو من مدينة ماجونقا؛ توجد قرية بها بيت يحجون إليه مرة كل سنة، في نهاية شهر يوليو وأوائل شهر أغسطس؛ المنجمون هم من يحددون الموعد حسب القمر، وحسب البروج وغيره ويحج إليها الناس أهل ماجونقا الذين سافروا إلى فرنسا، وإلى جزر القمر، وغيرهما.

يأتون فيحجون، ويطوفون بملابس غير مُخيطة، ولا يغطون رؤوسهم، ويدعون، لذلك يسمونها دُعاني، فيدعون، ثم يذبحون ويمشون؛ وأي خطأ تخطؤه عليك دم، فمثلًا لو بدأت ما يسمونه الحج برجلك اليُسرى، فعليك حينئذ دم، ويجب أن تذبح بقرة).

سألت الدكتور السميط: وكيف سمحوا لك بدخول بلدتهم ورؤية كعبتهم؟.

فأجاب رحمه الله:

(حقيقة هم لم يسمحوا لي أنا ذهبت مرة ومرتين وثلاث مرات، ولم يسمحوا لي؛ سمحوا لي لاحقًا، أنا أذكر أنني ذهبت مع زوجتي وأولادي وبناتي، وأخوة من بعض الدول العربية- المغرب، الجزائر، تونس، ومصر- فقالوا لي أنت وأولادك نسمح لكم؛ لكن من معك من الإخوة لن نسمح لهم، لن ندخلهم لأنهم كانوا مرتدين بنطلونات، ومن يلبس بنطلون كافر عندهم.

بعدها قالوا لي: هؤلاء زوجتك وبناتك ينزعون هذا الذي على رؤسهن وينزعون هذا الذي على وجوههن؛ فقلت لهم بالنسبة لزوجتي وبناتي في مكة عندنا، ما يرفعون هذا الذي على رؤسهن، فلماذا أنتم مصرون على نزعه؟ فقالوا: هل نحن علمناكم كيف تحجون في مكتكم؟ إذًا لا تعلموننا كيف نحج في كعبتنا؛ فإذا كنتم تريدون زيارة الكعبة الخاصة بنا فلابد أن تزيلوا الغطاء، حاولنا معهم ولكن بلا فائدة.

فذهبت أنا وأولادي، وكلمت أميرهم؛ فقلت له: نحن قادمون إليكم ونحن مسلمون وأنتم تحبون المسلمين، ولكن الجماعة منعونا من الدخول، نسيت أقول له زوجتي وبناتي مغطيات، اكتفيت بكلمة محجبات، فقال: لا يوجد مانع. فأرسلت ابني الأصغر عبد الله وقلت له اذهب فنادي أمك وأخواتك؛ فأتى بهن؛ وهم بالطريق صرخ عليهم الناس وأخذوا يضربون على رؤوسهم، يقولون، انزعوا هذا، ولكن بلا فائدة، لم يسمعوا لهم لأن أبوهم قال توكلوا على الله، وتعالوا.

قبل أن نصل لمكتهم، ثارت ثورتهم، وهجموا علينا يريدون أن يفتكوا بزوجتي وأولادي، وكنت أول مرة أرى أم صهيب، وأرى بناتي يجرون بهذه السرعة، إلى درجة أنهم ركبوا السيارة، وهي تسير؛ مثل الصاعقة؛ وأنا أخرجت أموال ورميتها حتى أشغلهم، لكن بلا فائدة، غضبهم كان شديدًا جدًّا؛ وكل واحد منهم أخذ الذي أمامه؛ غصن شجرة، عصا، وهجم، وسلمنا الله منهم.

مرة ثانية جئت إليهم فقالوا لي: انزع الملابس الداخلية، فنزعت السروال ولبست إزارًا، وسمحوا لي بالدخول. ودخلت فوجدت عظامًا لشخص ميت؛ أعتقد أنه شخص عربي وهو الذي أدخل الإسلام للمنطقة، ويبدوا أنه كان حاكمًا يقدسونه تقديسًا إلى درجة العبادة، فقد رفضوا أن يدفنوه، وأبقوه في إناء، وبنوا عليه هذا البناء، ويطوفون حوله، وقد دخلت داخل المبنى، هو أكبر قليلًا من الكعبة -بدون تشبيه- لكن مثل الكوخ).

وقد منعونا كفريق تليفزيوني من الدخول إلى المبنى، ولكننا حصلنا بالحيلة على صور لهذا المبنى الذي لا تجوز زيارته يوم الثلاثاء، ويُشترط عدم تغطية الرأس، ولا لبس المخيط أو الأحذية.

وعن هذه المنطقة التي تضم هذا البناء يقول الدكتور محمد بن حمد الخميس مدير عام لجنة مسلمي أفريقيا:

(يوجد في إقليم ماجونقا قبيلة اسمها قبيلة السكالافا؛ هذه القبيلة عندها بناء أشبه ما يكون بالكعبة؛ يقدسونه، ويعظمونه، ويحجون إليه بالسنة مرة واحدة، ويزورونه في العام أكثر من مرة كزيارة، ويقومون بطقوس وأعمال تشابه إلى حد كبير ما يقوم به المسلم في الكعبة؛ وهم يسمون كعبتهم بالدعاني أي بيت الدعاء.

وحينما ذهبت إلى هذا البيت لرؤيته ونقل صورة عنه، وفور وصولي إلى هذه الكعبة- كعبة مدغشقر- أو إلى الدُّعاني، وقابلنا الشخص المسؤول فيها، وكان معي مترجم، فهذا المسؤول أخبر المترجم أنه من المستحيل أن تزور كعبتنا لأن ديننا لا يسمح أن يزور كعبتنا من ليس على ملتنا، أو على ديننا.

بعد أن أخبرني المترجم بذلك، طلبت من مسؤول الكعبة أن أتحدث معه مباشرةً، فسألته هل تعرف مكة؟

فقال: نعم أعرفها.

قلت له: هل تعرف أن في مكة كعبة؟

قال: نعم أعرف.

قلت له: أنا أتيتك من أهل مكة، من بلاد مكة، وهذه مجموعة من الهدايا عبارة عن ملابس لك، ولزوجتك، وحلويات لأطفالك، هذه مُرسلة إليك من أهل مكة، ويطلبون منك أن تدخلني إلى كعبتكم لرؤيتها، وأخذ صورة عنها لنقلها إليهم.

ولأن الأفارقة يمتازون ببساطتهم، وطيبتهم المتناهية، فخلال دقائق معدودة، قال لي: الأمر الآن مختلف، ولا مانع من دخولك إلى هذه الكعبة، ولكن بشروط؛ قلت له: وما هي الشروط؟.

قال: أولًا لا تدخل اليوم لأنه حرام علينا، فضلًا عن غيرنا أن ندخل أو أن يدخل أحد إلى الكعبة.

قلت له: والثاني؟

قال الأمر الثاني أن تغير ملابسك، أن تغير هذه الهيئة التي أنت عليها.

فقلت: نظرًا لأن المدينة التي نحن فيها أو فيها هذه الكعبة عدد المسلمين فيها قليل، والأمن فيها ليس كما يُرام، فإننا نلبس البنطال والقميص حتى لا نُعرف أننا من الخليج أو من السعودية.

فقال: لا يجوز أن تدخل الكعبة بالبنطال والقميص.

قلت له: وما علي أن ألبس؟.

قال: تلبس الثوب الأبيض، أو تلبس إزارًا ورداًء أبيضين).

زيارة قرية مكة

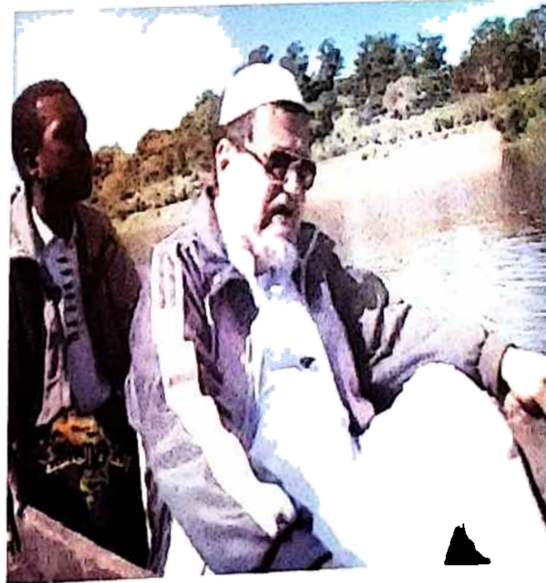
الوصول إلى القرية التي تسمى مكة ليس بالأمر السهل فهو يستدعي السفر إلى مناكارا بطائرة صغيرة لمدة ساعتين أو أكثر، ثم الانتقال إلى قرية فايوبينو بسيارة في طرق وعرة ومسالك خطرة، ثم عبور نهر مليء بالتماسيح على قوارب صغيرة، لا يُسمح فيها بالحركة الكثيرة حتى لا تسقط، ثم مشيًا على الأقدام في الغابات والمستنقعات، ثم إكمال الرحلة عبر مستنقعات مائية خطيرة تصل فيها المياه أحيانًا إلى الصدر.



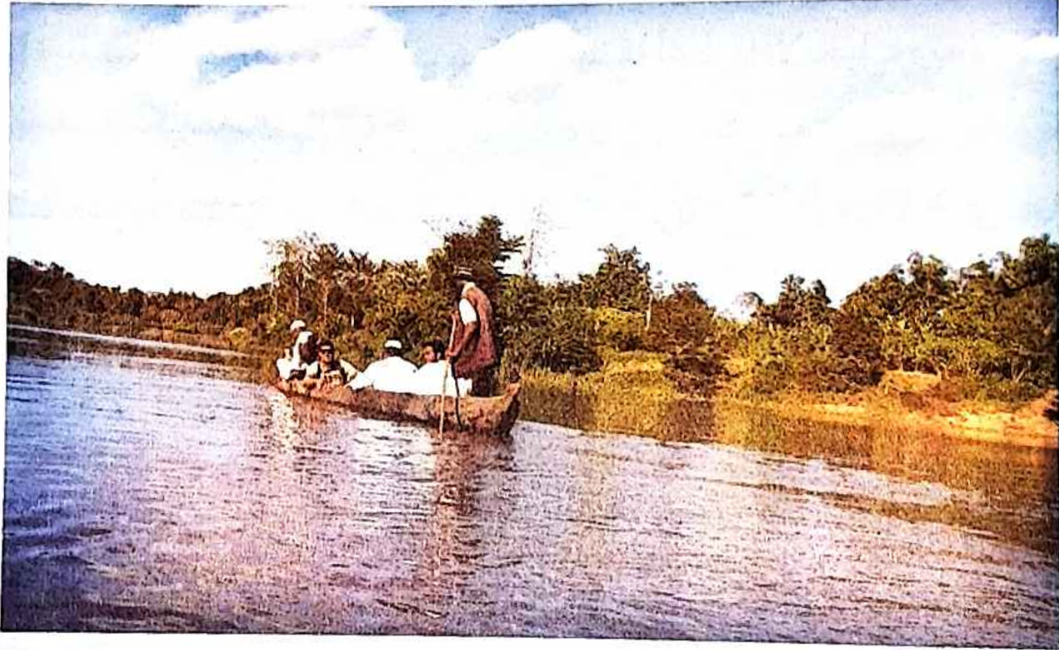


يقول لنا الدكتور السميط ونحن في صحبته إلى تلك المنطقة على متن قارب صغير: (إن الوصول إلى مكة ليس بالأمر السهل؛ الحمد لله أنهم كلهم أسلموا وأرسلنا لهم شخصًا يقيم بينهم، وهذا الشخص الداعية بدأ ينشر الإسلام فأسلمت القرى المجاورة كلها). سألت الدكتور السميط عن الأفاعي في هذه المستنقعات وقصته معها فأجاب: (بالفعل كنت أخرج الأفاعي من هذه المستنقعات، كنت أنزل إلى الماء، وأتحسسها، ثم أمسكها فأخرجها، ثم بعد ذلك أطلق سراحها).





كنت أحادث المترجم المرافق والمساعد طيلة الطريق عن المسافة المتبقية بسبب قلقي الشديد أن تسقط الكاميرا من المصور ثم يضيع الجهد علينا، وللعلم لم يستطع المصور أن يحظى بصور كثيرة لانشغاله بالمشي ورفع الكاميرا فوق رأسه حتى لا يصيبها الماء وقد كانت معاناة شديدة في المشي داخل المستنقع.



في الطريق يحكي لنا الدكتور السميط عن قرية مكة فيقول: (ذهبت إلى قرية مكة وصُعقت بما رأيت في الحقيقة؛ فقد سألتهم عن سبب تسميتهم قريتهم باسم مكة؟

فقالوا إنها على اسم القرية التي أتينا منها؛

فقلت: من أين؟

قالوا: من الشمال؟

قلت من أين بالشمال؟

لا يعرفون، وما سمعوا من قبل عن السعودية ولا عن بلاد العرب.

سألتهم عن دينهم؟

قالوا: الحمد لله نحن مسلمون بروتستانت!!.

تساءلت مندهشًا كيف مسلمون وبروتستانت؟

قالوا: أجدادنا قالوا نحن مسلمون، لكن لا نعرف شيئًا عن الإسلام، لا صلاة، ولا صوم، فجاء هنا البروتستانت وقالوا لا يوجد فرق بين البروتستانتية والإسلام أبدًا!!؛ علمونا كيف نصوم ونصلي، بنوا لنا كنيسة، أعطونا الإنجيل، ونحن كل يوم أحد نذهب للكنيسة.

هذه صورة مبدئية عن القبيلة التي تسكن قرية مكة، وهناك قرى مجاورة تحمل أسماء عربية مثل قرية حجاز، وقرية مصر، وقرية مراكش مما يدل على أن هناك أناسا جاءوا من أماكن مختلفة، لكن الجزء الأكبر بتصوري جاءوا من الحجاز).

قلت للدكتور السميط مثمنًا عمله الدعوي: يا دكتور عبد الرحمن إن المعاناة التي يلقاها الدعاة، وتلقونها أنتم - كتب الله أجركم - عظيمة شديدة نحن أحسسنا لا أقول جزءًا لكن عُشر الجزء من هذه المعاناة خلال هذه الرحلة لتصوير هذا البرنامج؛ مثلًا لما نزلنا في المستنقع اليوم لقطع مسافات من أجل قرى معينة، أنا ملابسي كلها أكاد أقول لك أني رميتها، هذه مرة واحدة نزلنا فيها المستنقع، فما بالكم وأنتم تمرون بها مرة كل أسبوع على الأقل.



ضحك الدكتور السميط وقال لي:

(أنا لا أستطيع أن أرمي ملابسي فهذا يكلفني الكثير، خاصة وأني أمكث هنا لفترات طويلة ولا أعود إلى السعودية أو الكويت أو الإمارات تكرارًا حتى آتي بثياب جديدة، في البداية قمت بغسل الملابس ولكن لم يذهب منها أثر الطين والوسخ والروث، غسلتها مرة ثانية ولا زالت وسخة حتى الآن. فقمت بتفصيل ملابس خاصة للمستنقعات، سروال داكن لا يظهر فيه الوسخ، طبعًا لا يوجد هنا سراويل جاهزة بهذا الشكل، فاشتريت قماش بنطلونات ولكن من نوعية رخيصة، وفصلتها سروال، والآن عادة عندما أذهب في رحلة للمستنقعات ألبس هذه السراويل الداكنة، وأدخل بها في المستنقع.



أنا عندي أثواب رخيصة ذات العشرة ريالات عندي منها أكثر من عشرين ثوبًا لأن المشكلة أنني لا أستطيع أن أتوقّى الطين، فعندما نخرج لقرية من القرى

أعود في نهاية النهار وأنا مليء بالطين، حتى على طاقيتي كثير من الأحيان أمسح على طاقيتي وتجد كومًا من الطين موجود على الطاقية، وعلى النظارة، وعلى الوجه، فما بالك بالثوب، الحذاء نفس الشيء، وكذلك الجوارب، لذا يجب أن نغير الطقم بكامله في نهاية اليوم.

تخيل أنه في كثير من الأحيان تقف السيارة في الطريق بسبب الطين، ويجب أن ندفعها؛ ورغم أنني أحتاج لمن يدفعني أنا شخصيًّا بعد أن وصلت لهذا العمر وتلك الأمراض إلا أنني أكون مضطرًا أحيانًا أنا وزوجتي وابني لدفع السيارة حتى تخرج من الطين).



يوم أن تهنا في الغابة

لمسنا في مدغشقر أن التفاهم والتواصل اللغوي صعب للغاية، فبعض السكان يجيد الفرنسية خصوصًا المثقفين منهم، أما الإنجليزية فلا يعرفونها ؛ وعليه فغالب السكان لايتكلمون سوى لغتهم المحلية، وربما لايفهم بعضهم لغة بعض في مناطق معينة.

سألناهم مثلًا عن السعودية؟، فقالوا: لا نعرف شيئًا اسمه السعودية وتساءلوا متعجبين أين تقع السعودية هذه؟!!.

سألناهم عن بعض الدول التي من الممكن أن تكون قريبة منهم مثل مصر؟، ولكنهم أيضًا لا يعرفون مصر.

مصر معروفة فقط عند المثقفين الذين يملكون أجهزة استقبال، وهذه موجودة في المدن، أما القرى فلا يعرفون شيئًا عن هذه الدول.

إذا قلت لهم تعرفون مكة؟.

يقولون لك لا نعرف إلا قرية مكة التي في بلادهم (تحدثنا عنها فيما سبق).

وللحديث عن صعوبة التواصل اللغوي حكمة ستتضح معالمها في السطور القادمة؛ فقد شرعنا في زيارة لوكمبي وهي إحدى قرى قبائل الأنتيمور؛ سلكنا الطريق إليها بصعوبة شديدة، وبعد أن قطعنا الطريق بالسيارة لمدة ساعتين، دخلنا الغابة مشيًا على الأقدام. فقام الدكتور السميط ومن معه بالذهاب للدعوة، ونحن سلكنا طريقًا آخر للتصوير، فحدث أن تُهنا في الغابة؛ مررنا بمستنقع رائحته سيئة

جدًّا، ومنتنة؛ فالرائحة كانت قاتلة جدًّا، بسبب الوحل الناتج عن مياه الأمطار الراكدة، وروث المواشي - أجلكم الله- إضافة إلى أن مسلك الأرض كان خطيرًا جدًّا، ومع ذلك يقطعه الناس يوميًا، فهذا هو الطريق بالنسبة للناس.

عندما تُهنا في الغابة لم يعرف المرشد الذي يصاحبنا ماذا نريد؛ حاولنا أن نشرح له أكثر من مرة؛ ولكن لم يعرف ما نقول له بسبب اللغة.



مشينا حوالي ساعة أو ساعتين من أجل الوصول إلى الطريق الذي سبقنا له الدكتور ومن معه، لكن المرشد لا يدري ما القصة؛ حاولنا إفهامه؛ رسمنا له مسجدًا، قلنا له: السلام عليكم، لربط ذهنه بالفريق الدعوي ولكنه كان يرد علينا قائلًا: عليكم السلام، حاولنا أن نقول: أين مسلم... مسلم مستخدمين كل الحيل ولكن بلا جدوى...

الأمر الذي جعلنا مضطرين للعودة مرة أخرى إلى القرية التي جئنا منها للبحث عن الفريق الذي كان معنا.

طبعًا مخاطر الغابات التي واجهناها كانت كثيرة جدًّا، وقد تخوفنا كثيرًا نحن والفريق التليفزيوني من مسألة الدخول إلى هذه الأماكن؛ خاصة من البعوض والأمراض التي ينقلها مثل الملاريا وغيرها.

بعض الدعاة منذ سنوات وهو مصاب بالملاريا، ويعالج ثم يعود إلى الدعوة إلى الله، ولابد أن أسجل شهادة للتاريخ ليعلم الناس كيف يسترخص الواحد منهم حياته في سبيل الدعوة، فهل فوق هذه التضحية تضحية ؟ وهل يصدق المترفون المنعمون أن يحصل هذا في أوساط الدعاة ؟.

أيضًا من مخاطر الطريق الذي سلكناه عندما خرجنا من النهر أنه كان عبارة عن غابة جلسنا فيها فترة طويلة من أجل أن نقطعها، ثم نمر بنهر، ثم نمر بمستنقعات. فسلكنا أسهل الطرق؛ وكان عبارة عن مستنقع مخيف ومرعب لأنه مليء بالأفاعي؛ وقد حذرونا كثيرًا من الأفاعي والمستنقعات. ففي رحلتنا هذه شاهدنا مجموعة من الأفاعي تمر أمامنا في المستنقع؛ كما شاهدنا بعض التماسيح وإن كانت قليلة في المستنقعات؛ ولكننا وجدناها في النهر كثيرًا.

إن كان هذا هو حالنا مع رحلة عمل تليفزيونية فإن الدعاة الذين يتم نقلهم إلى هذه القرى ينتقلون هكذا دوريًّا.

الدكتور عبد الرحمن السميط وهو في عمر متقدم ومريض، ويحتاج إلى من يساعده في المشي، ومع ذلك كان لا يقف أبدًا ينتقل في كل مكان مهما كانت خطورته من أجل الدعوة إلى الله.

عندما كنا نقول له هذا مستنقع؛ يقول لنا أنا قبلكم، وأعرف المنطقة.

وبالفعل ينزل قبلنا في المستنقع، وفي النهر كان يركب المركب قبلنا، بل إنه في بعض الأماكن المخيفة التي كنا نخاف من الوصول إليها، يكون هو الذي يسبقنا إليها.

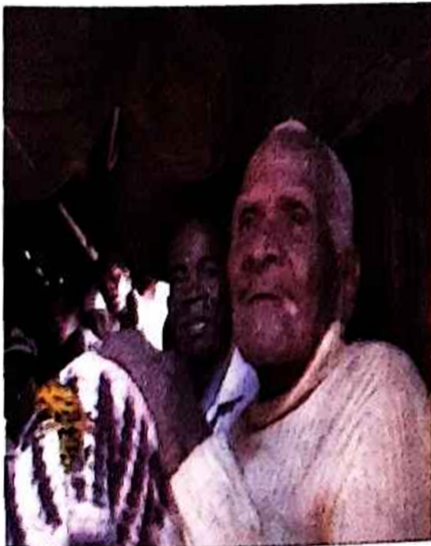
ثم يأتي خطر الانزلاق الذي كان من الممكن أن يحدث في أي لحظة، وهو شديد الخطورة، لأن الانزلاق قد يودي بك إلى نهر، أو مستنقع. وبالفعل انزلقت قدماي ووقعت على الأرض، ولكن الله سلم.

وبعد أن تقع لك أن تتخيل كيف ستكون ملابسك وحالتك !! وأين ستقوم بتنظيف نفسك وماذا تلبس بعدها ؟ كلها تساؤلات إجابتها الوحيدة.. لا شيء !!!



وقد كان كل ذلك جزءًا من المعاناة التي مررنا بها يوميًّا كفريق عمل حتى نتعرف على أحوال الدعاة إلى الله في القارة المنسية.

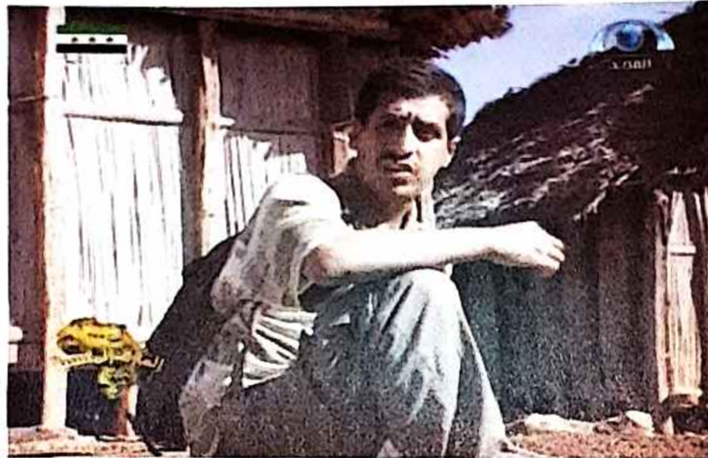
بعد معاناة وصلنا إلى قرية لوكمبي؛ هذه القرية أسلم ملكها وعمره مائة وخمسون عامًا كما يذكر من معه.



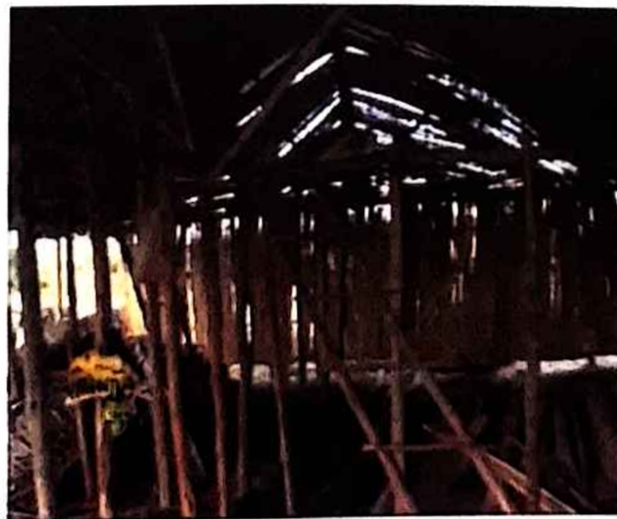
وقد حاورته في حضور جمع من الناس وسألته عن تاريخ القبيلة وأجداده وأصولهم؛

فقال: إن أصولهم تعود إلى مكة، ولكنه هو شخصيًّا لا يعرف مكة، ولا يعرف أين تقع، كل ما يعرفه أن أصوله عربية وأن أجداده ذكروا له أنهم جاءوا من مكة، وقطعوا مسافة بعيدة جدًّا بالسفن حتى استقروا في لوكمبي.

حاولنا تأمل بيوت هذه القرية؛ وجدناها صغيرة وبسيطة للغاية؛ وأثاثها أشد بساطة؛ البيت لا يستطيع أحد الوقوف فيه فهو فقط للراحة والنوم، أما أسرة النوم فهي عبارة عن حصير للنوم.



ورغم هذه البساطة فممنوع دخول البيت بالحذاء؛ أبواب البيوت في معظمها سهلة الفتح؛ وأدوات الطبخ شديدة البساطة؛ مخازن الحبوب مرفوعة عن الأرض بخشب وهذه هي الطريقة الوحيدة لهم ليخزنوا الحبوب التي تنشر مسبقًا في الأرض بكميات كبيرة حتى تجف؛ خصوصًا في موسم الأمطار، ثم بعد ذلك توضع في المخزن.



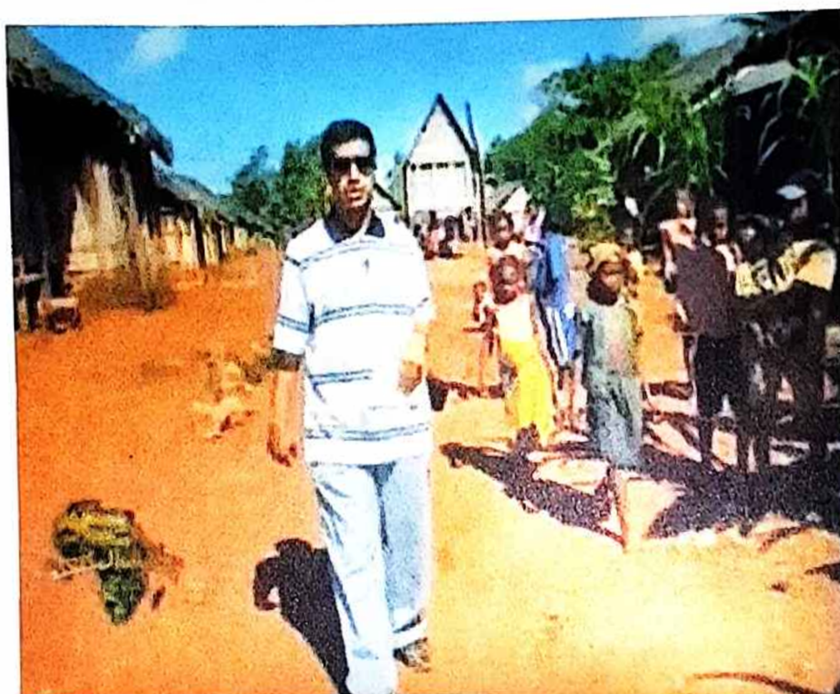
إن مشاهد البيوت رسالة حقيقية موجهة لمن يسكن في بيوت الرفاهية والراحة، نقول لهم شاهدوا بعض إخوانكم المسلمين كيف يعيشون وكيف أنتم تُنَعَّمُون.



دخلت أحد المنازل الخشبية فتمددت فيه، فإذا يديّ ورأسي تلتصق بالجدار من ناحية وقدميّ بالجدار المقابل.. هذا كل المنزل الذي يضم أربعة أو خمسة يتناوبون على النوم فيه لصغر مساحته.



أما الملابس التي يرتدونها فهي متقطعة متهالكة، فقد تجد الطفل الصغير وهو يلبس ملابس ممزقة لا تستره؛ لأنه لبسها بعد أخيه الذي كبرت سنه ولم تعد هذه الملابس تصلح له.



وقد أعرضت هنا عن وضع بعض الصور لأطفال ونساء ورجال لا يلبسون من الثياب إلا مايستر عورتهم المغلظة من شدة الفقر والحاجة.

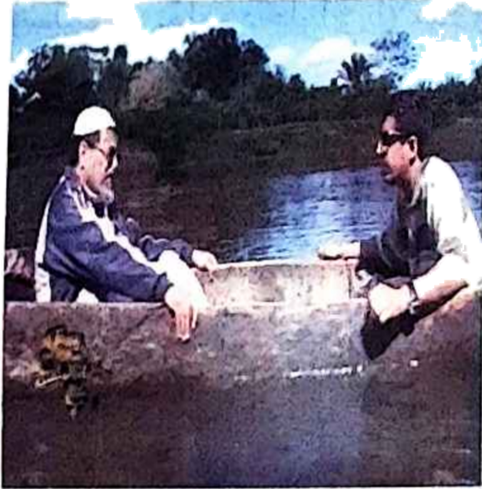
الدعاة وخطر التماسيح

انتقلنا إلى بلدة تسمى فايوبينو التي غالبية سكانها من المسلمين، مررنا بنهر حتى نتمكن من الوصول لهذه البلدة؛ من مشكلات هذا النهر أنه مليء بالتماسيح، وقلما يسلم أحد ممن يسقط في هذا النهر من التماسيح؛ خصوصًا أن التنقل يكون بزوارق صغيرة.

وقد شاهدنا تماسيح كثيرة تتحرك نحو مثل هذه الزوارق، وحدث أن سقط في النهر بعض العاملين في مجال الدعوة ممن صاحبنا في مهمة فريق البرنامج، وسلم بأعجوبة ولله الحمد من التماسيح.

انتقلنا بصحبة الدكتور السميط عبر الزوارق في أماكن عديدة؛ وسألناه عن انطباعاته عن الرحلات عبر هذه الزوارق لساعات؛

فقال لنا رحمه الله:



(إنها رحلات طويلة نسبيًّا ثلاث أو أربع ساعات، وهي مصحوبة بخطر التماسيح. لكن التماسيح وهي هادئة لا يوجد منها مشكلة، فهي لا تثور إلا في أوقات العواصف، وفي أوقات الأمطار الكثيفة، حينها فإن نفسيتها تسوء. ونحن خلال الدعوة دائمًا نعبر الأنهار بالزوارق البدائية؛ وهي وسيلتنا الوحيدة في هذه المناطق؛ فأنا عندما أخرج للدعوة يوميًا أو كل يومين، أعبر النهر ذهابًا وإيابًا).

سألت الدكتور لماذا لا يتم تصنيع شيء أكبر للانتقال؛

فأوضح لنا أن التكلفة عالية، وهم فقراء لا يستطيعون تطوير المراكب.

في كثير من القرى التي ذهبنا إليها كفريق تليفزيوني كنا نرافق مجموعة من الدعاة، تعرفنا على بعضهم، وهم من جماعات مختلفة؛

يأتون من أجل الدعوة إلى الله، ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام.



بعض الشباب بعد أن قابلوا الدكتور السميط؛ انتقلوا معه إلى أكثر من قرية للدعوة إلى الله، يدخلون بعض القرى، ويدعون للإسلام دعوات بسيطة، ثم يسلم بفضل الله عدد كبير.

دخلنا بصحبة الدكتور السميط إلى قرية فأسلم خمسة من أهلها، أقل عدد يمكن أن يسلم في القرية من خمسة إلى عشرة.

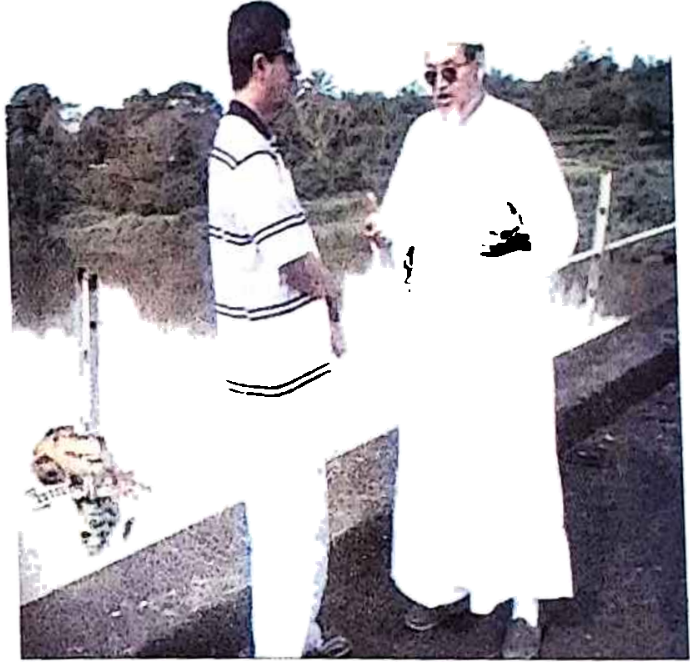
قرية من القرى أسلم الملك والمستشارون وعدد كبير يفوقون الخمسين شخصًا أسلموا جميعًا، ودخلوا في الإسلام عندما سمعوا تعاليم بسيطة عن الإسلام.

توقفنا أثناء الرحلة إلى قرية تسمى فايوبينو على جسر يعبر النهر، وهو جسر مهترئ سقطت منه سيارات عديدة، والنهر مليء بالتماسيح؛ وحينها سألت الصحبة هل تعرفون أحدًا أكلته التماسيح هنا؟.

رد علي «عباد» وهو أحد الدعاة المصاحبين لنا بقوله « كثير»؛ وضرب مثالًا بطالب في معهد الشريعة التابع لهم كانت له أخت تغسل ثيابًا في النهر، فجاءها التمساح وعضها، ومزق كل الفخذ، ودخلت المستشفى.

فعندما تأتي العواصف وترتفع المياه، ويكون الهواء شديدًا، فإن ذلك يثير غضب التماسيح فتأتي إلى الشواطئ وتأكل من عليها.

يقول الدكتور السميط رحمه الله:





(فايوبينو هي العاصمة التقليدية لقبائل الأنتيمور، وهذا الجسر يقع على حدودها الخارجية، وهو قديم جدًّا وكله تكسير؛ لأنه من الخشب. والناس مع الأسف في الليل يسرقون الخشب حتى يطبخون به، أو يبنون بيوتهم، فضعف الجسر، وقد عبرته شاحنة ذات مرة فسقطت ومات تسعة عشر رجلًا.

أما النهر فاسمه ميتاتانو، والنهر كله تماسيح، ويصل إلى الجبال في الداخل حوالي مائة كيلو أو أكثر قليلًا، ويصب في المحيط الهندي.

والتماسيح بالطبع عاثت فسادًا في أبناء القبيلة، وأظن أن التماسيح الآن بدأت تبتعد عن المناطق التي يكثر فيها الناس؛ لأن عدد التماسيح الموجود الآن صار قليلًا جدًّا).

سألت الدكتور السميط : هل صحيح أنه لا توجد قرية إلا وتفقد طفلًا أو طفلين في بعض الأماكن بسبب التماسيح؟.

فأجاب قائلًا:

(هناك أماكن ثانية مثل شمال كينيا جاليسا وتانا ريفر، كل قرية كبيرة كل أسبوع أو أسبوعين يوجد شخص تأكله التماسيح، لأن أعداد التماسيح كبيرة.

والمشكلة تكمن في النظرة الغربية والقيم الغربية التي تدعو إلى وجوب المحافظة على التماسيح بغض النظر عن الثمن البشري، لا يفكرون في المحافظة على الآدمي بقدر تفكيرهم في المحافظة على التماسيح.

أنا كمسلم فكري إما أن أصطاد التماسيح وأرميها في مكان بعيد عن المدينة أو القرية، أو أقتلها لأنها أضرت بالناس، وتأكل الناس.

قبل شهر ذهبت في رحلة إلى قريةٍ للدعوة، وبالطريق كان معي أحد الإخوة في زورق صغير جدًّا، كان الزورق طويلًا ولكنه ضيق، لأنه عبارة عن غصن شجرة ويحفرونه مثل الزوارق، ولأنني لا أستطيع الجلوس طبيعي بسبب رجلي -عندي التهاب المفاصل-، فسقطت بالنهر، والحمد لله، قبل أن يصل لي تمساح من التماسيح أنقذني الله ورجعت للقارب، وفقدت ساعتي- ساعتي رخيصة بعشرين ريالًا- ولكني فقدت ما هو أغلى فقدت الكاميرا، فكاميرتي غالية علي جدًّا فبها أوثق كل رحلاتي.

وبعد الحادثة وخروجي من النهر أكملت الرحلة، ووصلت القرية المقصودة، وعندما كلمتهم عن تاريخهم وكلمتهم عن الإسلام فوجئت أن شيخ القرية، أو ملك القرية يقول لي:

«إنهم في غاية السرور أن واحدًا من أهل أرض مكة قادم لنا كي يكلمنا عن تاريخنا، ويكلمنا عن أصلنا من مكة ومن الحجاز، وتعب كل هذا التعب في سبيل الوصول لنا؛ لذا... يقول الملك... فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»، ففجأة قام كل أهل القرية وشهدوا بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله).

وقد أرسلنا لهم اثنين من الدعاة يقيمون لهم دورة للمهتدين الجدد؛ والمهتدون الجدد الذين أجرينا لهم الدورة أصروا على أن يقوموا بالدعوة من أول يوم، فيخرج معهم الداعية في وقت الفراغ ليمروا على القرى المجاورة؛ فأسلمت خمس قرى مع القرية هذه، فصاروا ست قرى الآن كلهم مسلمون، وسنبني إن شاء الله لهم مسجدًا......... وأذكر مرة أني كنت في رحلة دعوية فمررت بمكان جميل تغطيه الأشجار وتمر فيه المياه، فقلت في نفسي ما أجمل أن أصلي لله تعالى في هذا المكان ركعتين، وكنت أحب أن أخلو بنفسي في مثل هذه الأماكن، فنزلت وتقدمت للوضوء من النهر ووضعت قدمي على صخرة وكلما هممت بالوضوء أعجبني المنظر فتقدمت إلى الصخرة الأخرى، مددت رجلي لأضعها على صخرة هناك داخل النهر، فإذا بها تتحرك، وترتفع فعلمت أنها تمساح يفتح فمه، وعندها هربت وقلت الان يجوز التيمم) وبمناسبة تماسيح هذا النهر يذكر لنا الدكتور السميط طرفة يقول فيها: (أكثر من مرة مررت بهذا النهر، وكان معي أهلي، وبالطريق، ونحن بالزورق الصغير الخطر أقول لهم، ترضون أن أتزوج واحدة ثانية، وإلا أحرك الزورق شوي!!).



وأما بقية المخاطر من الأسود والهوام والأفاعي فحدث ولا حرج فهي أكثر من أن تحصر أو تذكر فقد يمر عليهم يوميا من هذه المخاطر ما يكون سببا لفقد إنسان أو إصابته أو ضرر يلحق به.

قال الشيخ السميط رحمه الله : (أذكر يوماً من الأيام ذهبنا للدعوة، وفي الطريق مررنا بملجأ من الملاجئ للأطفال، وهناك ملاجئ للأسود الجريحة أو اليتيمة محبوسة بأقفاص، فكنت آخذ بيد ولدي صهيب وكان عمره أربع أو خمس سنوات، فكنت أكلمه وأنا أنظر إلى الأسد ماذا يفعل؟ فأعطوهم اللحم أمامنا فأكلوها، وبعد قليل سحب صهيب يده من يدي دون أن أشعر، وفجأة أراه داخل القفص مع الأسود، فجن جنوني، وتبين لي أن القفص لم يكن مقفلاً، فهرعت بلا شعور ودخلت بهدوء وسحبته قليلاً قليلاً حتى أخرجته، وأحمد الله أنه لم يكررها.

لكن عدة مرات كانت الأسود تأتي إلينا في مناطقنا، وفي دار الأيتام كنت نائماً في المسجد وكان الجو حاراً، فنمت داخل المسجد وأقفل الإخوان الباب الذي كان من خشب خفيف جداً، ففتحته وفرشت حصيراً على عتبة المسجد ونمت، ولما أتى مسئول الأيتام والأيتام رقوا لحالي وتأثروا كثيراً.

فلما أذن للفجر صليت معهم، وجلست بعد صلاة الفجر في المسجد أذكر الله سبحانه وتعالى، فسمعت ضجة كبيرة في خارج المسجد، فخرجت من المسجد أريد أن أرى سبب الضجة، فوجدت سبعة أسود قد دخلت دار الأيتام، والأيتام يمسكون الحجارة ويرمونها بها يحاولون إخراجها، فقال لي المسئولون في مركزنا: لقد جاءت هذه الأسود منذ شهرين وعاشت داخل المركز وأبت الخروج منه، وإذا خرجت فإنها ترجع إليه ثانية، فهل لديك طريقة تطردها بها؟ فقلت له: أنا أستطيع أن أطرد مدرساً، أو أطرد يتيماً، أو أطرد طالباً، أما الأسود فلم أتدرب على طرد الأسود، والأسد الوحيد في بلادنا هو في حديقة الحيوان فقط.

في يوم آخر نمت عند شيخ استضافني جزاه الله خيراً، ورأيت رجلاً مرتدياً بزته

العسكرية، فتوجست منه، مع العلم أنهم يحترمون الشيوخ حتى لو كانوا من غير المسلمين؛ لأنهم يعتقدون أن الشيخ لو دعا عليهم فإن الله سبحانه وتعالى سيعاقبهم، فقلت له: ماذا تفعل هنا؟ فقال: هناك أسد دخل بيت الشيخ في الحديقة - والحديقة ليست كبيرة- ومعه مجموعة لبوات لم نستطع إخراجها، فقلت له: يا أخي! لو لم تخبرني بهذا الكلام إلا غداً في الصباح لكان أولى).

أما الأفاعي فقد اعترضت الدكتور ونحن معه أفعى في مستنقع فأخرجها بعصاه وأكمل مشواره، أما نحن فرفضنا وركبنا السيارة وسلكنا الطريق الأبعد لنصل مكان اللقيا معه !!!

زيارة لرئيس ملوك قبائل الأنتيمور

توجهنا في صباح ذات يوم للقاء رئيس ملوك قبائل الأنتيمور؛ هم يسمونه كما ذكرنا ملك الملوك، وهذا لا يجوز.

خرجنا حسب الموعد المحدد مع رئيس الملوك، ولكن كيف تم تحديد الموعد؟ هل من السهل أن تقابل رئيس الملوك؟.

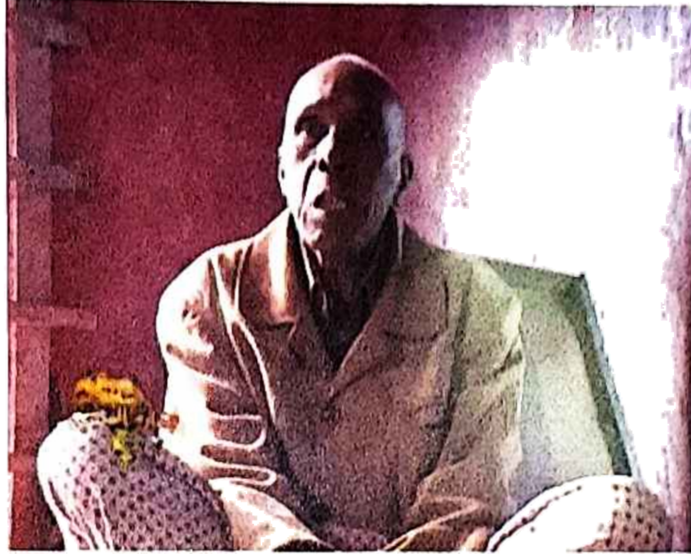
سألنا ناصر عبد الرزاق -الداعية التائب- عن كيفية ترتيب لقاء رئيس الملوك؟.

فأخبرنا الداعية ناصر بقوله:



(في عادة الأنتيمور أن يتم إبلاغ «رئيس الملوك» قبل ثمانية وأربعين ساعة أو ثلاثة أيام قبل الموعد، حتى يتم تجهيز البيت الملكي وإبلاغ المستشارين. والمشكلة تكمن في أنه يخضع تحت رعاية رئيس الملوك إثنى عشر ملكا، وإبلاغهم من أجل الحضور

يستغرق وقتًا، وبالتالي فهم بحاجة للوقت حتى يكون الجمع غفيرًا داخل البيت الملكي أثناء اللقاء).



سألت: هل هناك هدايا تقدم للملوك من أجل الحصول على موعد؟.

فكانت الإجابة من الداعية ناصر:

(طبعًا طبعًا؛ هذا أمر ضروري وفقًا للعادة الموجودة، ليس هناك هدية خاصة لملك الملوك، ولكن على الضيف أن يُقدّر ما يسلمه لرئيس الملوك، وأعوانه، ومستشاريه، وزوجة الملك، حسب الترتيبات التي يقوم بها الملك من أجل ضيفه.

مرات مثلًا تكون الهدايا بسيطة في بداية الإعداد للقاء، وعندما يتم اللقاء مع رئيس الملوك، ويكون الجمع غفيرًا، وهناك رقصات شعبية فعادة ما يفرح الضيف ويقدم أكثر وأكثر).

سألت الداعية ناصر : سمعت أن هناك عادة تحديد عدد معين من الهدايا هل هذا صحيح؟

فأجابني بقوله:



(بالفعل توجد عادة موروثة بأن تكون ثلاثة تنتقل إلى ست تنتقل إلى إثنى عشر وهكذا)[1].

سألت الداعية ناصر أيضًا عن مراسم خروج الملك وحاشيته؟.

فأجابني الداعية ناصر بأن:

(الوضع يختلف بحسب وضع الملك؛ فالملوك العاديين مثلًا يحملهم العبيد، أو يحرسهم بعض الحاشية لقضاء حاجته، أو للذهاب إلى العاصمة. وهناك عادة موجودة وهي عدم تعبيد أبناء نفس القبيلة داخل حاشية الملك.

(١) هممت أن أعطيهم مبلغاً من المال لكن لما علم الدكتور بذلك نهاني، وقال : لا نريد أن نعوّدهم على هذا ؛ ثم نحن لسنا مثل المنصرين الذين يشترونهم بالمال كنت قد هممت أن أقدم مبلغا ماليا يفوق مائة دولار !!!

وإذا خرج الملك من أجل حاجته الشخصية فإنه يستأذن من المستشارين، حتى يكون المستشارون على علم بتحرك الملك، مثلًا في حالة ذهاب رئيس الملوك إلى العاصمة للحصول على تقاعده فإنه يذهب بعد إبلاغ المستشارين، ويتجه وحده بدون أي شخص.

ولكن إذا كان خروجه من أجل حاجة داخل دائرة البيت الملكي، فإنه لا يستطيع أن يخرج وحده، بل لابد أن يكون بصحبته أثنان من المستشارين، ومن يحمل له حقيبته وفي كل الأحوال يوصي أحد المستشارين بالجلوس داخل البيت الملكي لاستقبال الضيوف في حالة الطوارئ.

سألت الداعية ناصر عن كيفية التعامل مع زوجة الملك وهل لها خصوصية في التعامل؟.

فأجابني الداعية ناصر:

(زوجة الملك لها خصوصية فهي تعد كأم لأبناء الأنتيمور، وتقدم لها كرامة، كما تقدم كرامة الملك، وعادةً أبناء الأنتيمور يسمونها أم لأنها زوجة الملك، وأم الجميع، ولها مكانتها، ولها كلمتها، ولها كرامتها بين أبناء الأنتيمور).



تحركنا بالسيارة قبل الموعد بمدة كافية، لأن التأخر عن الموعد يعني أن تدفع فدية، وفي الطريق توقفنا لشراء الهدية التي لابد أن تقدم للملك[1].

(١) الهدية عبارة عن عدد فردي من زجاجات الكوكاكولا الكبيرة ، ولابد أن يكون العدد فردياً ومن واحد .

وقد واجهتنا صعوبة بالغة ؛ فالطريق كان شاقًا، وربما توقفنا ونزلنا من السيارة كي تسير السيارة بمفردها، أكثر من سيرنا فيها بسبب الوعورة.

بقينا في سير صعب إلى أن انقطع الطريق، ولم نستطع المرور، فاضطررنا أن نسلك طريقًا آخر من خلف الغابة كي نستطيع المرور بالسيارة، إلى أن وصلنا القرية ومن ثم القصر الملكي.

أعطونا تعليمات معينة من أجل الدخول على رئيس الملوك، وأخبرونا أن هناك طريقة لخروج رئيس الملوك، وهي أن يخرج محمولًا على الكراسي مع مستشاريه، وتخرج أمامه مجموعة من النساء بالرقص والتحية.

ولكننا اعتذرنا عن هذه الطريقة؛ وطلبنا الدخول على رئيس الملوك مباشرة لإجراء اللقاء معه، وقد واجهنا صعوبات كبيرة حتى حققنا هذا الهدف.

بدأ بعض الملوك يتوافدون على القصر الملكي؛ لأن رئيس الملوك لا يبدأ بافتتاح الجلسة واستقبال الضيوف إلا إذا توافد ملوك القبائل المجاورة.

نحن جئنا قبل الموعد بفترة والحمد لله لأننا لو تأخرنا لدفعنا غرامة ولن يسمح باستقبالنا مرة أخرى فلذلك أتينا قبل الموعد؛ أشعرنا رئيس الملوك بحضورنا، وانتظرنا الإذن بالدخول، خلعنا الحذاء لأنه يمنع منعًا باتًا الدخول بالحذاء؛ وصعدنا سلم القصر ودخلنا على رئيس الملوك.

استقبلنا مستشار الملك بكلمات ترجمها لنا المترجم بقوله:





(أنتم جئتم لنا من مكان بعيد وهذا دليل الأخوة والمحبة، وهذا الحضور دليل على أنكم لم تنسونا؛ فنحن لدينا كتب توضح بأن أجدادنا من هناك من مكة المكرمة، ونحن نرى أن سبب مجيئكم هذا هو أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسلكم إلى هذا المكان لكي ينقذنا من الظلمات إلى النور).

نظرنا إلى رئيس الملوك وجدناه بمفرده متكئًا، فهو لا يتكلم إلا بعد أن ينتهي الجميع، وحتى هذه اللحظة لم يؤذن لنا بالكلام، وحتى رئيس الملوك لا يتكلم حتى يأتي نائبه ومستشاروه، فإذا ما أتوا جميعًا، أذنوا له بالكلام، ومن هنا كان انتظارنا.

وعندما طال الانتظار وتأخر نائب الملك، سأل أحد المستشارين الملك هل نبدأ أم ننتظر، فالتفت الملك إلى المستشار الأول وسأله، فأشار عليه بالبدء لأن النائب تأخر.

وهنا بدأت في الكلام وترجم المترجم كلامي؛ فقلت:

أبدأ أولًا بالترحيب برئيس الملوك، وجميع الحضور، ونقول له نحن من أهلكم في مكة، أرسلونا إليكم هنا، وقد كلفوني أن أبعث لكم بالتحية، وأسأل عن أخباركم، وأنقل أيضًا تاريخكم إليهم مصورًا.

فأهلكم في مكة يعتقدون جزمًا أنكم منهم، وأنكم انتقلتم من مكة إلى هنا، ودينكم كان دين الإسلام، ولذلك فكتابكم المقدس فيه شبه كبير من كتابنا المقدس القرآن الكريم.

وكثير من كلماتكم هي في الحقيقة عربية؛ مثل كلماتنا، وبالتالي فنحن وإياكم الآن نشعر بأننا شيء واحد. وأؤكد لكم أن هذه الزيارة في الحقيقة هي من أجل السؤال عن أخباركم، وأحوالكم، والاطمئنان عليكم؛ ونحن نستأذن رئيس الملوك أن نطرح بعض الأسئلة عن تاريخكم، وعن بعض العادات عندكم إذا أذن لنا.

فنقل لنا المترجم كلام رئيس الملوك والذي قال فيه:

(نعم الآن أنتم قلتم أنكم جئتم من العربية السعودية من مكة المكرمة، ونحن كذلك حسب التاريخ، نحن كذلك جئنا من مكة.

الآن أنتم جئتم عندنا مرارًا وتكرارًا لكن لم نعرف بيوتكم هناك، صحيح نحن واحد، ولكن من المفترض كذلك أن نزوركم هناك في مكة، لكن بسبب الفقر الذي نعيشه الآن فلا نستطيع القيام بذلك، ونحن نتمنى زيارتكم هناك.

وكما قلتم الآن بأننا واحد فهذا صحيح كلنا واحد، ونحن مالاجاش أنتيمور أي ضيف يأتينا فنحن نحترمه ونكَرِّمه.

وأحب أن أقول إن أثر وصول أجدادنا إلى هنا ما زال موجودًا فقد عرفوا الكتابة العربية، وهم الذين علمونا الكتابة العربية لكي نتعارف بالآخرين، وكانت الكتابة قديمًا باللغة العربية، وقد انتشرت هذه اللغة في مدغشقر وأصبح هناك تعارف بهذه اللغة).

قلت له معلقًا على كلامه:

أولًا نشكر رئيس الملوك على كرم الضيافة.

ونحب أن نقول له بأن مكة بحمد الله، وكل بلدان المسلمين تعيش أمنًا كبيرًا؛ والمسلمون يؤدون الحج، ويؤدون العمرة طوال العام في أمن وأمان وراحة بحمد الله؛ وبالنسبة لزيارة رئيس الملوك أو غيره لمكة فهناك شرط لا أملكه لا أنا ولا ملوك المملكة، ولا غيرهم، فهو شرط من الله عز وجل لدخول مكة، هذا الشرط هو أن يكون مسلمًا، فمكة لا يدخلها إلا المسلم؛ ولذلك نحن ندعو الملك أن يقوم بزيارة مكة بإذن الله للعمرة والحج، ونحن على أتم الاستعداد لدعوته دعوة كاملة.

ثم بعد ذلك سألت عن كتابهم المقدس عندهم والمعروف بالسورباي، كم عدد أجزائه؟ وهل بالإمكان أن نطلع على شيء منه.

فرد علي رئيس الملوك من خلال المترجم بقوله:

(الآن لا أستطيع أن أقول لكم بوجود هذا السورباي، لأن في عام ١٩٤٧م قام الاستعمار بحرق كل الكتب المقدسة، الآن بعض الأفراد قد يكون عندهم نسخ منه، ولكن الأغلبية حُرقت).

سألت عن عدد أجزاء الكتاب وعن تاريخ دخول هذا الكتاب لبلدهم فأجاب رئيس الملوك بقوله:

(لا أستطيع أن أقول كم جزءًا، لأنها حرقت في ذاك الزمان، ولو لم تحرق لعرفنا كم عدد الأجزاء الموجودة. وبالنسبة لتاريخ وصوله فنحن لا نستطيع معرفته

بالضبط، ولكن ما نعرفه أنه كان قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان).

وهنا تكلم أحد مستشاري الملك عن السورباي، ونقل لنا المترجم كلامه بقوله:

(هناك تغيير حدث على السورباي، فمثلًا نأتي بسورة مثلًا قل أعوذ برب الناس هذا هو أصل السورباى، لكن بعد فترة تغير، سورة الفاتحة مثلًا تغيرت إلى سورة الفاسحة؛ سورة إذا جاء نصر الله، تغيرت إلى إذا زا نصر الله).

سألت رئيس الملوك عن عادات الزواج عندهم وكيفيته؛ فأجابني رئيس الملوك بعد أن سأل مستشاره بقوله:

(بالنسبة للزواج عندنا فإنه إذا حدث اتفاق بين الرجل والمرأة وكان عندهم حب، فإن الأسرة تسمح لهم بإتمام الزواج، ويكون الاحتفال بالزواج بعد شهر أو شهرين بحسب إمكانيات الرجل).

وهنا سألت عن التعدد هل يحق للرجل؟.

فكانت إجابة رئيس الملوك:

(نعم يمكن ذلك؛ لكن المشكلة في أن الحياة صعبة الآن؛ حقيقة الأجداد كان عندهم تعدد، لكن الآن نظرًا لصعوبة الحياة فمن الصعب أن يكون للرجل زوجتان أو ثلاث).

انتقلت للسؤال عن المقابر واتجاه الدفن؟.

فأجابني رئيس الملوك بقوله:

(بالنسبة للدفن أولًا يكون الرجل في مكان، والنساء في مكان آخر، والأولاد في مكان آخر، ويكون المدفون متجهًا إلى الشمال).

وقبل ختام الجلسة أوضح لنا المستشار أن عنده أبناء، وابنه درس في تنزانيا وهو مسلم، وأنه كأب يحب الإسلام كذلك وهو مستعد للإسلام.

قمت بتلقينهم الشهادة ورددوها ورائي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، وأشهد أن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الله يبعث من في القبور.

قمت بعدها بتقديم الهدايا وشكرتهم.

خرجنا من القصر الملكي بعد أن أخذنا الإذن بزيارة المقبرة، وقد طلب منا المرشد قراءة الدعاء لدخول المقبرة، فما هذا الدعاء يا ترى؟!.

دفعنا رسوم دخول المقابر، ولابد من قراءة دعاء الدخول، والعجيب أن الدعاء هو قراءة سورة الفاتحة، وقل هو الله أحد وهم لا يعرفون أنها سور من القرآن الكريم.

قبورهم متجهة إلى الشمال أي إلي مكة؛ دعاؤهم فيه سورة الفاتحة؛ فمن أين جاءت إليهم هذه الأمور؟، إن هذا ليدل على أن أصولهم الإسلامية موجودة؛ ولكنهم منسيون.

التنصير في مدغشقر

أن يذهب مسلم إلى المسجد يوم الجمعة، ويذهب إلى الكنيسة يوم الأحد، أما يوم الاثنين فيعبد شجرة؛ فهذه ليست من نسج الخيال بل إنها غرائب موجودة في بلاد المسلمين المنسيين، لسان حاله يقول : لابد أن أحد هذه الأديان هو الصحيح، فليكن لي نصيب منها، ومتى وقعت عبادتي على الدين الصحيح فهذا نافع لي !!!!



إنها غرائب الأديان في القارة المنسية التي فرطنا في دعوتها حتى صار يصعب علينا تخيل عاداتهم الباطلة وتعددها وتنوعها، غير أن المؤكد أن التنصير يكتسحهم بقوة.

فالكنائس هنا منتشرة بشكل كبير، بل إننا وجدنا بعض الكنائس صنعت بشكل أكواخ صغيرة أو عشش، مما يدل على اهتمام المنصرين هنا بنشر الكنائس في أوساط مدغشقر؛ فماذا عن الكنائس؟ وعن دورها؟ وما العلاقة أيضًا بين أهل التنصير أنفسهم؟؛ دعونا نتحدث عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل.

حاولت الكنيسة المسيحية بمختلف طوائفها منذ عام ١٨٩٠ مـ العمل وسط قبائل الأنتيمور، وقبل ذلك بكثير بدأت العمل في الجزيرة بعامة. واستطاعت الكنيسة عبر عشرات المدارس التي أقامتها أن تنصر أعدادًا كبيرة من المثقفين المتعلمين، وفي قرى الأنتيمور تصل نسبة المسيحيين حوالي عشرة بالمائة. بينما لا تتجاوز نسبة المسلمين الاثنين بالمائة، والباقي هم الوثنيون. ولكنهم قريبون من الإسلام في عاداتهم وتقاليدهم؛ وقد حاول الاستعمار الفرنسي والبريطاني نشر الديانة المسيحية منذ أكثر من مائة سنة، ولا تزال جهودهم مستمرة وبشكل كبير ومتسارع.

توجد كنيسة مبنية على تصميم كبير وفريد؛ وهي قريبة من القرية التي يسكن فيها رئيس الملوك؛ ولا تخلو قرية في مدغشقر من وجود كنيسة، وفي الغالب تكون مبنية بناءً جيدًا؛ وتوجد أيضًا قرى تبنى فيها الكنائس من القش أو الأكواخ؛ وأكاد أقول أننا لم ندخل قرية إلا وفيها كنيسة.

أما التنصير في أفريقيا بصفة عامة فهو على أشده؛ إذ لا تتوقف أساليب التنصير على استغلال حالة الفقر، ولكنها تشمل الدخول عليهم من باب التغرير لجهلهم.

وقد رصد التنصير ميزانيات ضخمة لنشر التنصير في إفريقيا مستخدماً عدة طرق ووسائل، سالكاً دروباً مختلفة لتحقيق هذه الغاية.

فبعض طرقهم تكون بشراء القرى بالمال والدفع لزعيمها والمؤثرين فيها، وبعضها ببناء المدارس لتنصير الأبناء، وأخرى بتوزيع الكتب.

ومن الأمثلة على تلك الكتب التي توزع عليهم، كتاب وضعت على غلافه

صورة لشيخ مسلم، وآية من القرآن ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾[1]، والكتاب في الأساس تنصيري، وهو موجه للتنصير.

وقد جاء في أحد كتبهم وهو كتاب بعنوان «جرائم باسم المسيح» تحدث فيه المؤلف الألماني «جيرت فون باجينسكى» بكل صراحة عن الأهداف المخيفة لهذا التنصير، والتي كانت ترتبط بالأهداف الإنسانية وأعمال الخير؛ والكتاب فضح هذه البعثات، وأكد أنها ترتبط بالأعمال الاستعمارية بشكل وثيق، ووضَّح كيف توغل هؤلاء في الشعوب لتدمير ثقافاتهم، وطمس معالم حياتهم.

سألت الدكتور السميط عن كيفية تعامله مع هذا الملف المعقد، وعن علاقاتهم بالكنائس خاصة في ظل الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت؟.

فأجاب الدكتور السميط بقوله:

(الكاثوليك يكفرون البروتستانت، والبروتستانت يكفرون الكاثوليك، وهذا الأمر ممتد في كل مكان بالعالم حتى في هذه البقعة من أفريقيا.

وقد حدث أن رآني رئيس الكنيسة الكاثوليكية قبل إحدى عشرة سنة، فقال لي: أنت الدكتور عبد الرحمن السميط؟.

فقلت له نعم.

قال لي أنا أدعو لك وأدعو لكم كل يوم أحد بالكنيسة أن ينصركم الله.

فاستغربت الكلام، فالشخص فرنسي وقسيس، فاستفهمت منه عن سبب ذلك؟.

فقال: لأنكم أحسن من هؤلاء الكفار البروتستانت.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٤٥.

فقلت له: أحسن في ماذا؟

فقال: لأنكم تؤمنون بمريم العذراء، بينما هم لا يقدسون ولا يحترمون مريم العذراء، أنتم عندكم سورة بالقرآن اسمها سورة مريم.

فقلت له لا ليس سورة واحدة بل سورتين سورة مريم وسورة آل عمران، بينما محمد ﷺ ليس له إلا سورة واحدة، وما عندنا سورة لآل محمد، فطبعًا فرح وقلت له: نحن نحب مريم العذراء أكثر منكم.

فقال: كيف؟

فقلت له: في فرنسا بلدك، أو هنا لو واحد تكلم على مريم العذراء، ماذا تفعلون معه؟.

فقال: نقول له لا يجوز ولا تفعل ذلك.

فقلت: سأنصحك نصيحة تدري لو ذهبت لبعض الدول الإسلامية كالسعودية مثلًا وتكلمت بسوء على مريم العذراء ماذا سيُفعل بك؟.

قال لي: ماذا؟

قلت يذبحونك.

فرح الرجل بشكل كبير.

قلت له: مريم العذراء ليست نبيه بالنسبة لنا؛ ولكن هي أم نبي من أنبيائنا، ورغم أن هذا هو ربكم حسب زعمكم وهو عندنا نبي، إلا أننا نحترمه، ولا نرضى أن يوجه له أي أحد إهانة، أو إلى أمه، ونسميها نحن العذراء، وأنتم تسمونها فيرجن ماري.

ففرح الرجل وقدم لي هدية.

وأنا باستمرار أذهب وأهديه؛ فالذي حدث بالضبط أننا قسمنا المسيحيين هنا

إلى قسمين الكاثوليكي في جانب، والبروتستانت في جانب، وقلنا دعونا نجرب مع الكاثوليك؛ بين كل مدة وأخرى نقدم لهم هدية، نذهب إليهم ندعوهم عندنا؛ وقد اخترنا أكبر أربع قسس عندهم، القسيس منهم يكلفنا ثمانين دولار بالسنة هدايا بسيطة ورمزية.

يقول لي مدير البلدية: ماذا فعلتم بالكاثوليك؟

فقلت له: لماذا؟

يقول: يدافعون عنكم باستمرار، بينما البروتستانت يطالبون بسحب الأراضي منكم ويعاتبون على سماحنا لكم، بينما الكاثوليك يقولون لنا: أعملوا لهم كل ما يطلبون هؤلاء صالحون هؤلاء أناس طيبون.

فقد استطعنا أن نحيدهم بالكلمة الطيبة، والمعاملة الطيبة).

سألت الدكتور السميط: لكن الحكومة ليست لهؤلاء ولا لهؤلاء؟

فأجاب الدكتور السميط رحمه الله:

(إن الحكومة لا تعنيها هذه الأمور فالحكومة في الدول الأفريقية لا تتدخل في قضية الدين، فهي تعتقد أن الدين بينك وبين ربك فقط).

سألت الدكتور السميط وإن كان الحاكم أحيانًا من البروتستانت أو الكاثوليك؟.

فأجاب:

(الحاكم قد يهاجم الإسلام بلسانه؛ مثل حاكم سابق كان يكره الإسلام كرهًا شديدًا، وفي كل سنة كان يهاجم الإسلام، ولكنه لم يستطع أن يتخذ قوانين، أو يمنع الدعاة، فالمسلم يستطيع أن يقف ويهاجم المسيحية، ولكنني أؤكد هنا أنني لا أدعو إلى الهجوم على الأديان الأخرى؛ إذا أردتم أن تكسبوا الناس؛ فعاملوا الناس معاملة طيبة، وانظروا كيف تكسبون الآخرين).

سألت الدكتور السميط عن الاستئذان في بناء المساجد وهل هو مثل الكنائس؟

فأجاب الدكتور السميط بقوله:

(على العكس هم لا يستأذنون؛ ونحن نستأذن من البلدية؛ لا يوجد مسجد بنيناه إلا وعندنا له إذن؛ أنا أذكر في منطقة ماجونقا كان رئيس البلدية تاجرًا، وكان يتوقع أن أحضر له عقودًا من السعودية ومن الكويت والإمارات كأني هناك أمير.

فلما رأى أني لم أحضر له العقود التي كان يتوقعها بدأ في محاربتنا؛ قدر الله أن زوجته كانت كاثوليكية متعصبة جدًا، فكان كل يوم يأتي لنا بحجة، ويوم من الأيام قال لنا: أنتم تبنون مساجد بدون إذن ولا أحد يدرى، فقلت له: أخرج لنا مسجدًا واحدًا بنيناه بدون إذن؛ وأيضًا نتحدى أن تخرج لنا كنيسة واحدة بُنيت بإذن؛ فبهت الذي كفر).

استفهمت من الدكتور قائلًا: لكن يا دكتور هناك أناس كثيرون تم تنصيرهم؟.

فقال الدكتور السميط:

(من المسلمين لا لكن من الوثنيين نعم؛ لأن الكنائس عندها إمكانيات ضخمة مالية وبشرية[1]، وحيل على الإسلام أيضًا.

---

(١) في صفعة لهذا العمل صدر كتاب خطير بعنوان أسرار الفاتيكان؛ لمؤلفه ليبوليد ليدل تحدث فيه عن ارتكاب الجرائم باسم الفاتيكان وما يحدث من التعامل مع اللصوص والمافيا، والمؤلف شاهد عيان يحكي القصص التي وقعت له. وهناك كتاب بعنوان سادة الفقر كتاب يهز بل يغضب حقًا ملايين البشر؛ الكتاب موثق ويعرض حقائق صناعة العون والإغاثة لمؤلفه جراهام هانكوك الذي عمل مراسلًا لصحيفة الإيكونومست اللندنية في شرق أفريقيا، حيث تحدث عن استغلال هذه الأموال وكيف أنها تُصرف وتُسترد بطريقة أخرى، وما يحدث من سرقات في هذه الدول المنكوبة؛ ويكفي أن نلقي نظرة على هذه الأرقام التي تصدر من المنظمات الكنسية عن بعض جهودهم وأموالهم وما ينفقون.

ففي بعض الدول الأفريقية مثل ساحل العاج، خرجت علينا طائفة مسيحية تلبس ثوبًا أبيض مثل ثيابنا.

وبعض الطوائف المسيحية طلبت من أتباعها أن يصلوا بين المسلمين، ويصلوا خمس مرات في اليوم.

طائفة مسيحية بروتستانتية ذهبت إلى الصومال وأنشأت ما يسمونه بالطائفة اليسوعية العيسوية؛ في البداية يقول لك تعال نصلي في المسجد فقط، قائلين نحن نحترم عيسى المسيح، بعد ذلك يتطور الاحترام قليلًا ويبدأ في التقليل من مكانة محمد ﷺ، فيبدأ المستهدف في ترك القرآن، وترك الصلاة تدريجيًا إلى أن يحولوه إلى المسيحية؛ أما نحن فلا نتبع هذه الطريقة).

سألت الدكتور السميط هل هناك أحد ممن دخل إلى الإسلام تنصر؟

فأجاب الدكتور السميط:

(لا يتنصرون؛ ولكن هناك قلة منهم يرتدون إذا ما ربيناهم، وإذا ما علمناهم؛ ولكنها قلة قليلة جدًا؛ رغم الإمكانيات الضخمة للكنيسة، وإمكانياتنا المحدودة.

فنحن على سبيل المثال نأتي لمنطقة مثل التي نحن بها الآن؛ عدد سكانها مليون نسمة، عندنا الآن أربعة دعاة من الخريجين المحليين، وعندنا ستة دعاة من الخريجين العرب، وعندنا عدد من الدعاة المحليين من غير الخريجين حوالي ثلاثين ونشتكي مر الشكوى من أن هذا العدد لا يكفي، نحن بحاجة لعدد أكبر، لو توفرت لنا إمكانيات مالية لكفلنا عدداً من الدعاة أكثر.

مثلًا أنا فرحت عندما ذهب أحد الأخوة الزائرين إلى قرية من القرى، وأسلم فيها مجموعة، ومن ضمنهم كانت بنت مطلعة على مزيد من المعلومات عن الإسلام، ولا يوجد من تسأله فسألته أسئلة، بعدها طلب منا الأخ أن نرسل دعاة إلى هناك وأن نكفل هذه البنت ونعلمها.

أقول إن الذي رآه هذا الأخ بعينه سوف ينقله إلى أماكن أخرى في البلاد العربية، سوف يحدثهم عن مدى الحاجة إلى الدعاة.

وأنا من خلال منبركم المبارك أخاطب إخواني وأخواتي أن يا جماعة الخير والله الأهم من بناء المسجد كفالة داعية مدى الحياة، وكفالة الداعية مدى الحياة تقريبًا نفس تكلفة بناء المسجد، فبها نقوم بعمل وقف، ومن ريع الوقف ننفق على الداعية؛ المسجد المتوسط أو الصغير يكلفنا خمسة وسبعين ألف ريال، ووقف الداعية هنا في هذه المنطقة يكلفنا خمسة وسبعين ألف ريال تدفعها مرة واحدة، نستثمرها، واعتبارًا من العام التالي عندما يبدأ الريع يظهر ندفع من ريعه للداعية).

يضيف الدكتور السميط في رسالة للمسلمين قائلًا:

(هناك شيئان أتمناهما؛ الأول: أن هذه الأمة فيها مليار ونصف ولكن مع الأسف كلما تذكرت الأرقام الهائلة للمسلمين أتذكر حديث الرسول ﷺ (تجدون الناسَ كإبلٍ مائةٍ، لا يجدُ الرجلُ فيها راحلةً)[1].

أنا كل الذي أريده أن تعطيني خريجًا حكيما وذكيًا ويتحمل؛ أرسله إلى دولة إفريقية، لو عندي واحد في كل دولة أفريقية بهذه المواصفات، أنا مستعد أن أسلمكم أفريقيا، أو أسلمكم تلك الدولة بعد خمس عشرة سنة وهي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

الشيء الثاني: أتمنى أن يكون عندي أوقاف لأصرف منها؛ القبيلة مثلًا التي أعمل عليها بحسب خطتنا لخمس وعشرين سنة، نريد أن يكون عندنا وقف قدره أربعة عشر مليون دولار، عائده حوالي مليون وأربعمائة ألف تقريبًا، وذلك حتى أستطيع أن أخطط على المدى البعيد، وأستطيع أن أعمل بدون خوف.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ح (٢٥٤٧) من حديث ابن عمر .

فقد حدث لي أكثر من مرة أن أذهب إلى البنك وأكتشف أن ما عندي رواتب للدعاة، أو ما عندي أموال لبنزين السيارات، أنا عندي مئات السيارات في أفريقيا تخدم الدعوة، ولا أريد أن أوقف سيارة من السيارات، أو أغلق مدرسة من المدارس، أو أغلق مستوصفًا من المستوصفات بسبب عدم وجود قدرة مالية على التسيير.

ولكن عندما يكون عندي أوقاف، إذا كان أربعة عشر مليونًا للقبيلة، فإن الوضع يكون أكثر إثمارًا وأتمنى من الله سبحانه وتعالى يُسّهل هذا الأمر.

الفاتيكان يملك بنوكاً، يملك مصانع، يملك شركات، الكنائس تملك مليارات، حسب ما تقول المجلة الدولية لأبحاث التنصير والتي تذكر أن ما تم جمعه لأغراض التنصير في عام واحد هو ثلاثمائة وثلاثون ألف مليون دولار، أي ثلاثمائة وثلاثون مليار دولار في عام واحد لأغراض كنسية.

أنا لا أحلم بثلاثمائة وثلاثين مليارًا، أنا حتى ما أحلم بواحد بالألف من هذا المبلغ، لكن أريد المبلغ الذي يغطي عورتي المغلظة أثناء الدعوة، لا أريد أن ينكشف ظهري للآخرين بسبب عجزي، ماذا لو ذهبت إلى قرية وقالوا نحن مستعدون نسلم لو بنيتم لنا مدرسة، لو بنيتم لنا مسجدا، لو بنيتم لنا مستوصفا، وأقف عاجزًا عن أن ألبّي هذا؛ أنا لا أريد أن أرشي الناس مثل ما يدَّعون أن المسلمين يرشون الناس بالبترودولار، بدولارات البترول، ولكن أريد أن أقدم لهم خدمات تطور مجتمعهم).

السميط ورؤيته في لجنة مسلمي أفريقيا

خدمات اللجنة قبل الإسلام وبعده

لاحظنا أثناء رحلتنا أن هناك أعمالًا تتم في لجنة مسلمي أفريقيا للقبائل قبل الإسلام وبعد الإسلام، فمثلًا قبل الإسلام تحرص اللجنة على أن توفر مياه الآبار فهي مهمة جدًّا، وبعد الإسلام هناك مجموعة من الأعمال.

وهنا سألنا الدكتور السميط عن الأعمال التي تتم قبل الإسلام وبعد الإسلام من قبل اللجنة؟.

فأجاب قائلًا:

(إن جزءًا من خدماتنا حفر الآبار في القرى، حتى تلك القرى غير المسلمة؛ لأننا نعتبر كل الأنتيمور، وربما كل المالاجاش من المؤلفة قلوبهم.

فهؤلاء نقدم لهم خدمات؛ بعض الناس يقولون أنتم عندما تحفرون البئر تسمحون لغير المسلم أن يشرب منها؛ طبعًا يا أخي نقبل غير المسلم، إذا كان رسول الله ﷺ أخبرنا بأنه (بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ، اشتدَّ عليه العطشُ. فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب. ثم خرج. فإذا كلبٌ يلهثُ يأكلُ الثَّرى من العطش. فقال الرجلُ : لقد بلغ هذا الكلبُ من العطشِ مثلَ الذي كان بلغ مني. فنزل البئرَ فملأ خُفَّه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقِيَ. فسقَى الكلبَ فشكر الله له. فغَفر له. قالوا: يا رسولَ الله! وإنَّ لنا في هذه البهائمِ لأجرًا ؟ فقال : في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ)[1].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ح (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة .

فما بالك بإنسان تتوقع منه أنه في يوم من الأيام قد يهديه الله سبحانه وتعالى و يقبل الإسلام، أو يكون سببًا في الإخبار بخير عن الإسلام كأن يجلس في مجالس ويتكلم مع الآخرين، ويقول المسلمون خدموني في كذا وكذا.

والحقيقة أن خبرتنا ستة وعشرون سنة في أفريقيا رأيت فيها الآلاف بل ربما عشرات الآلاف من الناس أسلموا لأننا حفرنا لهم آبار مياه.

أنا أذكر في السنغال جاءنا حاكم الإقليم الجنوبي زيغنشور في السنغال وقال أنا أعرف أنكم مسلمون، وهو يظن أننا مثل الأديان الأخرى لا نخدم إلا جماعتنا، فقال:

أنا عندي ست قرى سكانها مسيحيون ووثنيون ويحتاجون إلى آبار مياه، أو إلى خدمات والمتمردون اتصلوا عليهم، وأنا أريد أن أحميهم من المتمردين بأن أشتري ولاءهم، فهل تستطيعون أن تساعدوني؛ تعملون أي خدمة من الخدمات لهم.

فقلنا له: لا توجد مشكلة؛ فذهبنا وحفرنا عندهم آبار.

بعد أسبوعين جاءتنا ثلاث قرى، وواضح أنهم كانوا متفقين؛ قالوا: أنتم جئتم قرانا وحفرتم ثلاثة آبار فيها ولم تقولوا ماذا تريدون من وراء صنيعكم هذا؟.

فقلنا: لا نريد شيئًا.

فقالوا إذن لم حفرتموها؟.

فقلنا: طاعة لله، لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بأن نحسن للآخرين.

قالوا: لكن نحن لسنا على دينكم، قرية من القرى قالت: نحن وثنيون، والقريتان قالتا ونحن مسيحيون ولا يوجد عندنا أي مسلم.

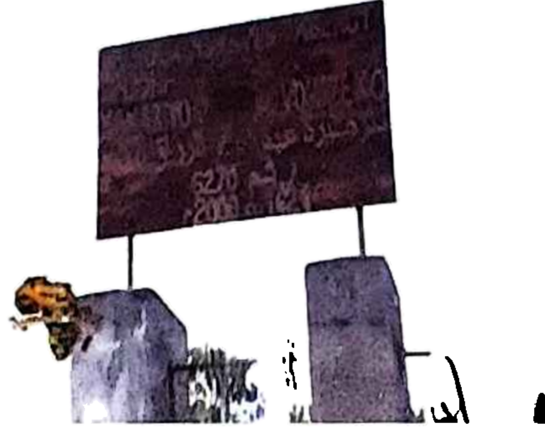
فقلنا: ديننا يأمرنا بأن نخدمكم).

إدارة التبرعات

سألت الدكتور السميط إذا قدّم المتبرع أمواله للجنة أو لغيرها، فكيف يعرف أين تُنفق هذه الأموال؟.

فأجاب الدكتور عبد الرحمن السميط عن هذا السؤال بقوله:

(أي بئر عندنا مثلًا أو أي مسجد أو أي مدرسة لابد أن يوضع عليها اسم المتبرع.



لكن في بعض الأحيان يقول المتبرع اكتبوا فاعل خير فقط، ففي هذه الحالة يكون عندنا رقم للمتبرع فعلى سبيل المثال لو كان مسجداً يكون رقمه ٤٤٤٥ مثلًا، في المنطقة الفلانية، ومسجل عندنا بالسجلات بالكمبيوتر، لا نكتب عليه اسم المتبرع، ولكن نضع عنوان المتبرع ونتصل عليه بعد مدة.

فكل مشروع من مشاريعنا لابد أن يكون له متبرع.

في الحقيقة ليس هذا فقط، أنت إذا كنت متبرعًا قبل خمسة وعشرين عاماً، فاسمك موجود عندنا بالكمبيوتر؛ كل المتبرعين، لكن شرط ألا تغير اسمك، لا تقول في المرة الأولى أنا عبد الرحمن السميط، وفي المرة الثانية دكتور عبد الرحمن السميط، الكمبيوتر سيعرضك باسمين مختلفين، لكن إذا تمسكت بنفس الاسم في كل مرة، كل تبرعاتك ستجمع في ملف خاص باسمك، وتستطيع أن تسأل عن كل تبرع أين ذهب، وكيف أُنفق؛ أنت تبرعت للزكاة؛ تسأل كيف أنفقتم الزكاة؛ أنت تبرعت لمسجد، فتسأل أين المسجد الذي بنيتموه، ونحن نرسل لك تقريرًا مفصلًا مصحوبًا بملف مصور يوثق أثر نفقتك).

المساجد مطلب مهم في أفريقيا؛ وقد لاحظنا من خلال زيارة عدد من القرى أنه كلما زرنا قرية وجدنا أن مطالبة أهلها ببناء المسجد هو المطلب الأساس لهم؛ كي يجتمعوا فيه خمس مرات للصلاة، فضلًا عن أوقات الدروس، وتعلم القرآن، مسجد يجمع قلوبهم التي فرقها الاستعمار، وفرَّقتها ديانات أخرى؛ وبالذات النصرانية والوثنية.

ومن العجيب أن بعض القرى ليس فيها إلا العدد القليل؛ ومع ذلك توجد فيها كنيسة، وقرى فيها الآلاف ولم نجد فيها مسجدًا واحدًا. ولكن ونتيجة لهذه الجهود المباركة، بذل المحسنون أموالهم في الدعوة إلى الله، لتظهر النتائج للعيان؛ مساجد منتشرة أدت دورها الكبير، وآبار مترامية هنا وهناك لسقي الماء، وكانت الثمرة العظمى منها هي تأليف القلوب للإسلام.

وفي ذلك يقول الدكتور السميط:

(بالنسبة لقرية غيفاتو وهي عاصمة رئيس الملوك، أنا لا أحب أن أقول الكلمة التي يقولونها لأنها محرمة؛ يسمونه ملك الملوك، فقرية رئيس الملوك لقبيلة الأنتيمور يسكن فيها عدد بسيط من المسلمين، فأحببنا أن نقوي المسلمين فيها، لا لعددهم فتأثير العدد بسيط، ولكن لأننا نحاول إغراء بعض الكبار في القبيلة، مستشار الملك وغيره، لعل الله يهديهم، لذا أحببنا أن نبني مسجدًا، فقام أحد الأشخاص بالتبرع بقطعة أرض لبنائه، وأثناء إعدادنا للإجراءات والخريطة وغيره، جاء تاجر صيني وعرض مبلغاً كبيراً لشراء الأرض، وصاحب الأرض فقير؛ فوافق على بيعها.

هذا الصيني لم يكتفِ بأنه اشترى الأرض التي كانت مخصصة للمسجد، بل إنه أتى بخنازير ورباها في هذه الأرض، ولكن قدر الله أنه في ليلة واحدة يموت ستون خنزيرًا، فكل الأنتيمور قالوا: إن هذا دليل على أن الله غاضب عليك.

فجاءنا الصيني وهو يرتعش؛ رغم أن الصينيين في الأساس لا يؤمنون بإله، إلههم هو الدرهم والدينار، فجاءنا يرتعش وقال لنا أمرين:

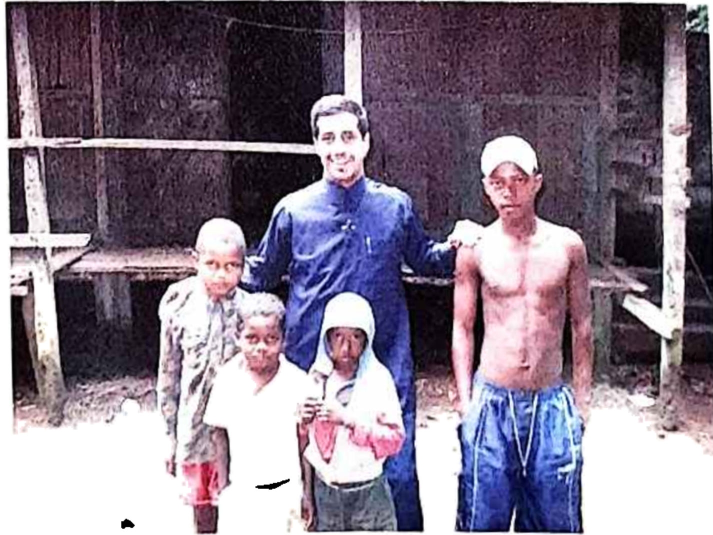
أولًا: أنا أخرجت الخنازير من القرية الآن.

ثانيًا: أنا أعلم أن الأرض التي فيها خنزير تعتبر نجسة، وأنا لن أحضر عمال رغم أنني تاجر قادر وأستطيع إحضار عمال ولكنني سأنظف الأرض لكم بنفسي؛ هذه الأرض أنا اشتريتها من مالي الخاص وأنا الآن أهديها لكم، لكن لي طلب واحد عندكم؛ توجد سورة عندكم بالقرآن أسمها يس أريد أن تقرؤوها علي لأنني أخشى مما سيأتيني مستقبلًا.

فتشاورنا وقلنا طالما فيها أرض للمسجد وفيها خير للمسلمين، دعونا نقرأ سورة يس، فقرأنا سورة يس، ودعونا الله أن يهديه.

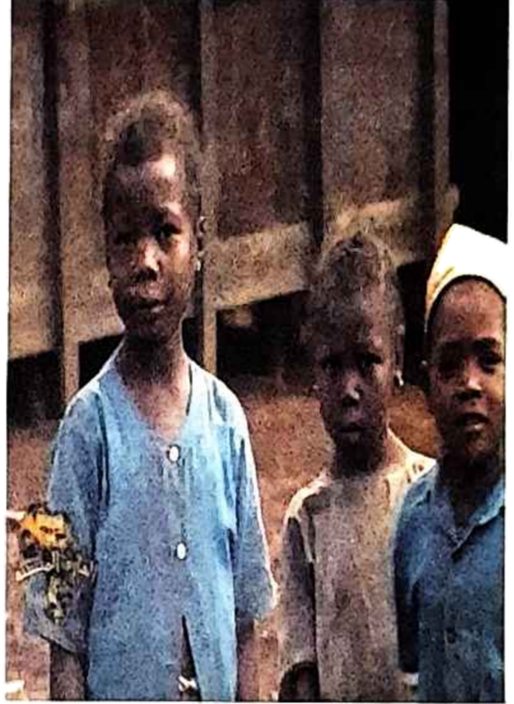
ورغم أن الله لا يعجزه شيء، ولكن قضية تحول الصينيين للإسلام ليست أمرًا سهلًا أبدًا فما سمعت بصيني تحول للإسلام هنا في مدغشقر).

الطفولة في أفريقيا



الطفولة الحالمة قُتلت في مهدها في عدد من دول أفريقيا نظرًا للفقر المدقع هناك؛ في مدغشقر يعيش الأطفال مأساة كبرى، حيث يعمل الطفل الملاجاشي عملًا لا يستطيع أن يقاومه الكبار، ومشكلة تشغيل الأطفال أو الأطفال الفقراء في العالم تتفاقم رغم الدعوات العالمية للتصدي لها.

فالتقارير تشير إلى أن أكثر من ستمائة مليون طفل يعانون الفقر في العالم، منهم مائتان وخمسون مليون طفل في الدول النامية يُجبرون على العمل الشاق يوميًا.





متاعب الأطفال تأخذ أشكالًا متعددة مع تساويها في مستوى أضرارها؛ أطفال يحملون الأعباء، ويسيرون حفاة الأقدام، يكسرون الحجارة الصماء بلا طعام ولا كساء؛ إنها الطفولة الموؤدة؛ ولكنه الوأد في قرون التطور والحضارة.

أما أمراض الأطفال في أفريقيا فمعاناة شديدة؛ حيث من النادر جدًّا أن نجد طفلًا يلبس لباسًا كاملًا؛ بل إن بعض الأطفال كما سألنا أهله لم يغير ملابسه منذ سنة وسنتين وثلاث أحيانًا، خصوصًا أنها ربما تصغر عليه وتتمزق وهي عليه!!.

الأمراض منتشرة بين الأطفال بشكل كبير، والأدوية غير موجودة، والتحصينات الطبية غير موجودة إلا عند بعض العوائل. لذلك يعاني الأهالي من مشكلات

مرضية كبيرة مع أطفالهم، فعلى الرغم من جمال الطبيعة، وكثرة الأنهار والحيوانات، إلا أن الأمراض منتشرة، والفقر شديد، والموت من الجوع أصبح ظاهرًا وظاهرة.

أبديت ملاحظة للدكتور السميط عن انتشار الأمراض بين الأطفال وانتفاخ بطن أحد الأطفال أمامنا.

فقال الدكتور السميط:

(هذا الطفل تلاحظ أن بطنه منتفخ بسبب نقص البروتين، وتلاحظ حافة شعره أشقر لنفس السبب نقص البروتين؛ ولو تشد الشعر يخرج في يدك بسهولة. وهذا طبعًا معرض للوفاة إذا أصيب بأبسط الأمراض؛ فمرض الحصبة أو مرض الأنفلونزا يقضي عليه حينها، وملايين الأطفال في أفريقيا بنفس الحالة).

وهنا سألت الدكتور السميط عن كيفية ترتيب الأولويات لهذه القرى في ضوء احتياجاتهم من الأكل والشرب والملابس والصحة.

فأجاب الدكتور السميط بقوله:

(أول قضية نهتم بها هي قضية الدين. ثم بعد ذلك ننظر في الاحتياجات الأول فالأول.



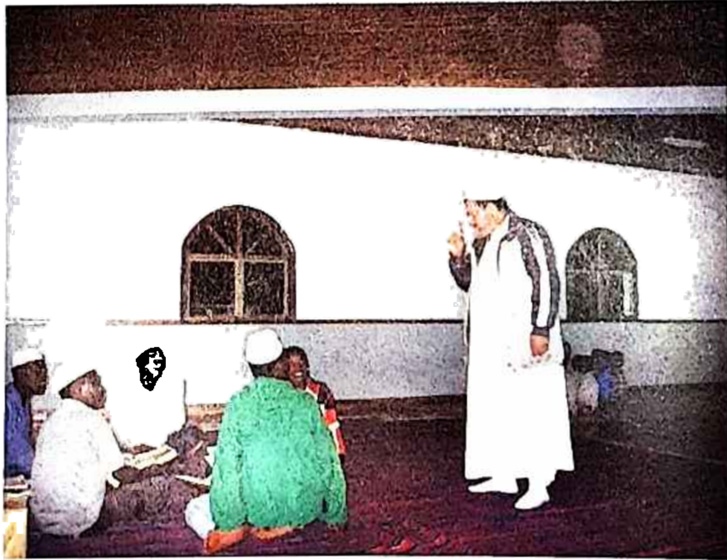
مثلًا قضية توفير المياه الصالحة للشرب أولًا؛ بعد الماء نحاول أن نقضي على سوء التغذية عند الأطفال؛ في بعض القرى نوزع على الطلاب الذين يأتون إلى المدرسة أو الكُتّاب بيضة كل أسبوع، البيضة تكلفنا حوالي ثمان عشرة إلى تسع عشرة هللة

سعودية، فبالريال يمكن توفير خمس بيضات، وعادة ما نعطيها للأطفال يوم الجمعة، وهذا كنوع من التشجيع لهم ليأتوا إلى الكتاب، وإلى المدرسة، وفي نفس الوقت نحسن من تغذيتهم؛ ثم بعد ذلك نلتفت للأنشطة الثانية).



رعاية الأيتام المسلمين

أما الأيتام فهم شغف هذا الرجل، يضع نصب عينيه دائماً حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وشبك بين أصبعيه السبابة والتي تليها»[1]، ونشهد الله تعالى أنه كان يحنو ويحرص عليهم، ويستيقظ أحياناً في منتصف الليل للمرور عليهم.



قال الشيخ السميط رحمه الله : (عندنا الآن ٢٠٤ مراكز في أفريقيا، منها مراكز للنساء، ومنها دور للأيتام، وأعتقد أن أفضل استثمار قمنا به هو في تربية الأيتام في هذه المراكز أولاً، فقد وفرنا لهم أفضل أنواع التعليم المتوفر في هذه المناطق، بدليل أن مدارسنا دائماً هي الأولى على مستوى مناطقها، والشيء الثاني أننا جردنا التعليم

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، (ح ٥٦٥٩) من حديث سهل بن سعد (رضي الله عنه)

من القيم السلبية الموجودة في المجتمع وبدلناها بقيم إيجابية إسلامية، من مثل أن الإنسان يجب أن يكد ويتعب لأجل لقمة عيشه وأنه يجب على الفرد أن يتصف في طريق تحصيله لقمة عيشه بالصدق والأمانة، وعدم التطرف، والاعتدال، والسماحة، وهذه قيم قد لا تكون موجودة في المجتمع.



أضرب لك مثلاً: ملاوي بلد لم يكن فيه أي خريج مسلم عندما بدأنا وذلك في عام ١٩٨٠م، وبفضل الله سبحانه وتعالى في سنة واحدة تخرج ثلاثون طالباً من أيتامنا وأولادنا وكلهم أطباء، واثنا عشر مهندساً، وستة محاسبين وستة من حملة الدكتوراه، وعدد من السفراء ومن كبار المسئولين هم من أيتامنا، ونحن لا نطلب منهم شيئاً، كل الذي نطلبه منهم أن يخلصوا لأهلهم ولبلدهم ولدينهم، وأن يعاملوا الناس معاملة طيبة، ويذكروا أن هناك من أحسن إليهم دون أن يراهم، وعليهم أن يحسنوا إلى الآخرين ويحاولوا دعم إخوانهم وأبنائهم لكي يتعلموا التعليم العالي).

كان رحمه الله حريصاً كل الحرص على المحافظة على أموال المتبرعين، وصرفها في وجهها الحقيقي، يتعجب المرء إذا رأى دقته المتناهية، وحرصه الشديد حتى في

حساب الأكل أو الأدوية المدفوعة للأيتام أو المرضى والمحتاجين، ومازلت أذكر غضبه الشديد عندما شاهد الأيتام يتلحفون البطانيات الكثيرة وقد سأل مدير مركز الأيتام: من وزعها بدون أذني ؟ فقال له : وزعها التاجر الكويتي فلان كان هنا ووزع البطانيات عليهم، وعندها طلب الدكتور جمعها فوراً منهم !!! سألته عن السبب ولماذا سحبها منهم مع احتمال وجود برد في الليل ؟ فقال : هؤلاء يعيشون في بيئتهم القاسية الشديدة وأنا أعرف تفاصيلها، أعرف متى يصيبهم البرد الشديد ومتى يتحملون البرد، فعندما نعودهم على الترف والدعة ثم يتخرجون من عندنا ويعودون لأماكنهم لا يستطيعون العيش في ظروفهم القاسية، لذا أنا لا أسمح لأحد أن يغير ترتيباتنا معهم..

من حرصه رحمه الله ماحكاه لنا ولغيرنا في قصته الشهيرة مع أحد الأيتام

قال رحمه الله :(جاءني يتيم في عام ١٩٩٢م وعمره سنتان وهو يعيش في المجاعة، فقمت بوزنه وقياس طوله فوجدت أن وزنه ٤٤٪ فرأيت أن لا أمل له في الحياة فقلت لهم: أنا طبيب وأعرف حالته، فقط اتركوه لا أمل في إنقاذه، وأدخلوا آخر وكان هناك عشرات الآلاف في ذلك الوقت في الطوابير، ثم واصلنا العمل وبعد ثلاث ساعات أحسست بتعب فخرجت ووجدت أمه تبكي، وهو نائم على بطنه ووجهه معفر بالتراب، فتأثرت وتعاطفت مع الأم، وتغلبت عاطفتي على النواحي العلمية والطبية، فقلت لهم: أدخلوه مع المجموعة القادمة، وكنت أقول: إذا أعطيناه من مال الناس فأنا أعتبرها خيانة للأمانة؛ لأن الناس لما أعطوني المال كان لزاماً أن أستخدمها



في أفضل الحالات، فقلت لهم: هذا عليّ أنا، وأنا سأدفع تكاليف علاجه، وكانت الوجبة في اليوم تكلفنا ست عشرة هللة سعودية، وهي عبارة عن ماء ودقيق ودهن وسكر وأحياناً نضع قليلاً من الحليب أو فول الصويا المطحون، ولا يأكل غير هذا، فنخلط له هذه المكونات ويشرب من هذا الخليط حوالي ٣٠٠ ملل، وبعد أسبوعين تجد هذا الهيكل العظمي قد عاد طبيعياً وقام ليمشي ويضحك.





ثم نسيت هذا الموضوع وسافرت بعدها بمدة، وبعد عشر سنوات وصلت لمكتبنا صورة هذا اليتيم اسمه: صديق كنن، وعمره اثنا عشر عاماً، وهو متفوق جداً في دراسته، وحافظ لعشرة أجزاء من القرآن، ويقولون الكثير عن أخلاقه العالية، فانظر بعد عناية الله ست عشرة هللة أنقذته من الموت والجوع.

فهذا كل الذي أريده من الإخوة المتبرعين، وأنا لا أقول لهم: أنا لا أريد تبرعات، بل أقول: إنه لا توجد دعوة بدون تبرعات، ولكن نعمة الله سبحانه وتعالى علينا كبيرة جداً وتستحق الشكر.

وأقول: تذكروا هذا اليتيم -صديق- وأمثاله الملايين الذين لا يحصلون على وجبة بست عشرة هللة أو خمسة عشر فلسا كويتيا، أو سبعة عشر فلسا إماراتيا، أو

خمس سنتات أمريكية تنقله من خانة الموتى إلى خانة الأحياء. وانظر كيف تقدم هذا اليتيم في الدراسة ووفقه الله، وقد رأينا أمثال هذا اليتيم ملايين من البشر هناك).



لا تنقطع علاقته بعمله بمجرد أدائه له، بل إنه يستمر في التواصل حتى مع أولئك الذين كان سبباً في هدايتهم بعد الله ونجاحهم وهاهي إحدى القصص التي حصلت له رحمه الله يحكيها فيقول (في عام ١٩٩٢م جاءتني الطفلة اسمها (حواء) وكان عمرها أربع سنوات، وكانت عبارة عن هيكل عظمي وعليه جلد، فأعطيناها وجبة يومية، كلفت هذه الوجبة ست عشرة هللة، في وقت المجاعة ست عشرة هللة كافية لإنقاذ إنسان من الموت جوعاً، وبعض الإخوة سامحهم الله نشروا أننا ندعوا في رمضان إلى التبرع لإفطار صائم بست عشرة هللة، لكن أقول: في رمضان يا إخوان الوجبة تكلف أكثر من ذلك، فنحن نقدم لهم اللحم ونحوه، أما في المجاعة فنقدم وجبات رخيصة، المهم فيها إنقاذ الطفل، فأعطينا هذه الطفلة وجبة يومية لمدة سنة، وكانت حينها جاءتنا عارية تماماً، وكان الذي يهمنا أن ننقذ حياتها، ولا نستطيع أن نقول لها: تستري، أو نرفع العصا عليها. فأعطيناها وجبة يومية لمدة سنة، حتى عاد لها جسمها، وقبل مدة أرسلت لي صورتها وهي امرأة كبيرة في ليلة زواجها.

وهي من الداعيات الحافظات، ومهمتها هي الدعوة إلى الله جزاها الله خيراً، وكنت فرحاً جداً كأن إحدى بناتي تزوجت، وبالحقيقة فأنا أفرح بالأيتام أكثر من فرحي ببناتي.

وأبشركم أن آلافاً مؤلفة من أيتامنا تخرجوا من الجامعات أطباء ومهندسين وعلماء، تخيل دولة مثل ملاوي حين ذهبنا إليها أول مرة لم يكن فيها أي خريج من الجامعة، المسلمون فيها قديماً كانوا ٦٦٪، ثم انخفضت نسبتهم إلى ١٧٪، والباقي إما هجروا أو نصروا، وفي سنة واحدة يا إخوة تخرج من أيتامنا ثلاثون طبيباً، واثنا عشر مهندساً، وستة يحملون شهادة دكتوراه في علوم مختلفة، وستة محاسبين).

لازاينا اسم أقرب ما يكون إلى الفرنسية هكذا كان اسمها في الخرائط القديمة، فهي بلدة تقع في شمال العاصمة الملاجاشية تانا، هادئة ساكنة تقبع في جبال الخضرة والارتفاع؛ تحيط بها الغابات من كل ناحية؛ إنها بلدة لازاينا أكثر المناطق تعصبًا للنصرانية، وربما كان الوجود الإسلامي فيها معدومًا، ومع ذلك أقيم بها مركزٌ للأيتام المسلمين؛ تحركنا إلى لازاينا في طريق لا بأس به؛ كانت الطرق المفترقة ترشد أصحابها بلوحات بدائية حيث نتوقف عند كل لوحة لمعرفة مسيرنا.

شقت السيارة بنا الطريق متجهين إلى البلدة المرتفعة؛ حيث دخلنا إلى مركز رعاية الأيتام المسلمين في لازاينا؛ وكان مسؤول المركز في استقبالنا.

وقد اطلعنا خلال الزيارة على سُبل العمل الخيري، وما يقدمه المركز من خدمات للأيتام المسلمين الذين يأتون من أماكن بعيدة، فهو مركز يُعنى بأبناء المسلمين في منطقة منسية، جمالها وروعتها لم يشفعا لها أن تكون محبوبة لأن الإسلام فيها منعدم.

وقد أوضح لنا المسؤول أن المركز به سكن، حيث الأسِرَّة ذات الطابقين واتساع المكان؛ حجرة الطعام، مخزن، مسجد، ومدرسة بها قاعات للتدريس؛ وتدرس في المدرسة مناهج الحكومة الرسمية ولكنَّ القائمين على المركز هم من يدرسون للأيتام؛ وبسبب الوضع الحساس في المنطقة لم يتمكن المركز من طرح البرنامج الإسلامي في المدرسة[1].





(١) تجولنا بالمركز وطالعنا صلاة الأطفال وأنشطتهم، فهذا طالب يقرأ القرآن بصوت رائع وآخر يلقي حديثاً لرسول الله ﷺ، والقاء جماعي لنشيد الله خالقنا بأداء رائع وصوت جميل.

غرائب ونوادر في القارة المنسية

التعدد والإنجاب

الرحلة وإن كانت مناظرها بهيجة والغابات ممتدة والأنهار تجري في كل اتجاه، إلا أنها رحلة شاقة صعبة، ذلك لأنها تقطع أماكن لم يكن لأي وسيلة نقل أن تصل إليها.

فالسيارات أحيانًا تتوقف، فيضطر من يريد أن يصل إلى تلك الأماكن أن يقطع الرحلة بنفسه ما بين المستنقعات وما بين الأنهار، ثم يصل إلى أماكن نائية، وصلنا إلى أماكن لم يكن أهلها يعرفون أساسًا أنهم في جزيرة مدغشقر، وصلنا أماكن لم يكن أهلها يعرفون أي شيء عن هذا العالم الفسيح؛ إنها رحلة شاقة جدًّا إلى بلاد المسلمين المنسيين.

هناك كثير من القرى بها تقاليد غريبة جدًّا؛ فضمن التقاليد مثلًا ما يتعلق بالنساء خصوصًا الفتيات؛ فبعض القرى خاصة التي دخلتها النصرانية بشكل كبير لا توجد عندها مشكلة إذا حملت الفتاة سفاحًا ؛ وبعضها يكون للمرأة حرية اختيار طريقة حياتها على غير المألوف أو الفطري بخاصة إذا كانت تملك مالاً فالعادات هناك بصفة عامة تتفاوت من مكان إلى آخر، لكن الملفت أن أصول كثير منها إسلامية أو عربية.

هناك اختلافات معينة تختلف من قرية إلى قرية، فالتعدد مثلًا موجود، ونادر أن يتجاوز الإنسان أربع زوجات، خصوصًا في مثل جزيرة مدغشقر، لكن في أماكن أخرى في أفريقيا كلما زاد غنى الملك، أو رئيس القبيلة، أو غيرهم، فإن له أن يعدد أكثر، وبعضهم يصل إلى عدد كبير من النساء.

على سبيل المثال توجد قرية في أطراف السنغال بها أحد السلاطين متزوج من أكثر من سبعين امرأة، وعنده ما يربو على مائة ولد، الذين في المرحلة الابتدائية منهم حوالي الخمسين طفلًا، والمدرسة الوحيدة التي فُتحت هناك سجل أبناءه في الابتدائي جميعًا، هذا واحد من السلاطين، وهناك مجموعة كبيرة من الغرائب التي شاهدناها خلال هذه الرحلة.

وقد قابلت أحد الملوك ممن أسلموا وزار السعودية بعد هدايته وأدّى فريضة الحج مع ضيوف خادم الحرمين الشريفين، كان لديه أكثر من تسعين زوجة ولديه غرف كثيرة ومستشار ومسؤول عن شؤون زوجاته يحدد له لمن تكون الليلة، فمن كانت ليلتها جاءت إلى غرفته الكبرى المعدة له، وقد طلب منه الدعاة أن يطلق مازاد على أربع من نسوته لكنه رفض، ثم بعد مدة قال سأختار أربعا ثم أجعل الباقيات (جواري ؟؟) وعلمت فيما بعد أنه تركهن واكتفى بأربع وحج مع بعضهن.

انتقلنا إلى روايميرو وهو اسم مسكن أحد ملوكهم القدماء من قبيلة الميرنا وهو اندريانا ميبو واتى؛ وقد أصبح الآن مكانًا سياحيًا مهمًا.

دخلنا الحصن المنيع الذي شُيد ليكون مقر حماية للملك، وصُمم بطريقة بديعة جدًا؛ حيث بنيت له الأسوار لحمايته، بالإضافة إلى أنفاق ومتاريس معينة وضعت لحمايته؛ وقد وضعت في مدخل الحصن لوحات تذكر تاريخ الملك وما حدث له، بالإضافة إلى خنادق أحاطت بالحصن لزيادة الحماية الأمنية له.

الفاما ديهانا (طقوس دفن الموتى)

طقوس دفن الأموات في مدغشقر من أعجب الأمور، حيث يتم نقل رفات الأموات من قبر إلى آخر في احتفالات يسمونها الفاما ديهانا.

وهم يعتبرونها رمزًا لتقديس الأجداد؛ حيث يقدم الجميع تبرعات نقدية تُسجل في حساب خاص للميت، وتوضع وليمة الموت، ثم يتوجه الجميع إلى المقابر لإخراج جثث الموتى ووضعها تحت أشعة الشمس؛ وتُسمى هذه العملية رازانا، ويكون في ذات الوقت قد هيئت أكفان جديدة لها تُعرض على جميع الحضور قبل إخراج الجثث ولفهم فيها.





بعد هذا العرض للجثث والأكفان، تُنقل الجثة على أكتاف الزوار، ويُطاف بها خمس مرات حول القبر قبل أن تدفن مرة أخرى.

تمر الاحتفالات بإعادة الدفن بطقوس صارمة؛ فبعد مراجعة رجل الدين الذي يقرر اليوم المناسب للاحتفالات، تقوم العائلة بتوفير المتطلبات من طعام، وفرق

موسيقية، ليستمر الحفل ثلاثة أيام؛ اليوم الأول للعائلة، واليوم الثاني يتقاطر المدعوون على الحفل ويقدمون الهدايا، ثم يُدعون لتناول الطعام، ثم المشاركة في حفل الغناء، أما اليوم الثالث فهو للسُّكْر والعربدة وإعادة الدفن، وكلما كان الحزن أكثر عند الموت، كان الابتهاج أكثر عند إعادة الدفن!!.

الختان في مدغشقر

يحدد موعد الختان في مدغشقر أكثر المنجمين شهرة، وغالبًا ما يختاروا الوقت الذي يكون فيه القمر في الربع الأخير، والفصل المفضل هو الشتاء لتجنب المشكلات الصحية.

وتستمر طقوس الختان ثمانية أيام تتغير فيها ملامح الحياة حيث يقوم أحد الزعماء بافتتاح المهرجان، ثم يبدأ الرقص والغناء وإطلاق النار لطرد الأرواح الشريرة، ثم ينطلق الرجال المعروفون بالصلاح الأخلاقي إلى الغابة للبحث عن شجرة اسمها رامبا فونا، وهي تشبه شجرة الزيتون، وبعد العثور عليها يقطعون منها عدة أغصان يغرسونها بعد ذلك في سطح البيت في الجهة الشمالية؛ أما عند بداية مراسم الختان فتغطي وجوه من سيختتنون بالطين الأبيض، ويرتدي هؤلاء ملابس خاصة، ثم يبدأ الختان، ولابد من جلب مياه من نهر معين لبركته؛ وهناك مجموعة من الشعائر التعبدية الخرافية مصحوبة بذبح القرابين؛ طقوس غريبة في مجتمع منسي.

النباتات والحيوانات في مدغشقر

الطبيعة في مدغشقر ما تزال بكرًا مقارنة بأماكن أخرى في العالم، فالعزلة شبه القارية للجزيرة ساعدت على ظهور الكثير من النباتات والحيوانات المتنوعة، ففيها ما هو مذهل وغريب من أنماط الحياة.

وزائر هذه الجزيرة يصبح لأول وهلة أكثر حبًّا للتعرف على التفاصيل المذهلة في أرجاء هذه الأرض. فمن الشمال إلى الجنوب، ومن شاطئ إلى آخر، ومن غابة إلى

غابة، ففي الجزيرة أنواع من النباتات لا توجد في أي مكان في العالم سوى هنا؛ مثل الفوين، والكبك، والتبلدي، وغيرها من أنواع النباتات.

وتُشكل الزراعة والغابات والثروة الحيوانية ما نسبته ثمانين بالمائة من المصادر الحيوية للبلاد.

شجر المسافر

طلبت من الدكتور السميط أن يحدثنا عن شجر المسافر المنتشر في مدغشقر، فقال مشكورًا:



(شجرة المسافر عُرفت منذ أكثر من خمسمائة سنة، وهي شعار لمدغشقر، حيث تعد مدغشقر أكثر دولة في العالم توجد فيها هذه الشجرة، وهي تشبه الموز، ولكن كأنها مضروبة بالمكواة.

وسُميت المسافر لأن المسافرين كانوا سابقًا يمشون على الأقدام ولم يكن عندهم وسيلة أخرى غير المشي، وكانوا إذا عطش أحدهم فبمجرد أن يقص ورقة من الأوراق يجد تحتها ندى، حيث يتجمع ماء صاف جدًّا، ونظيف ولذيذ جدًّا، ويشرب منه، فلهذا سُميت شجرة المسافر.



وهم يستخدمون القشرة الخارجية وحتى الداخلية في بناء البيوت، وأنا سوف أبني بيتًا منه إن شاء الله لي ولإخواني الزوار عندما يأتون لزيارتي).

رحمك الله يا دكتور عبد الرحمن السميط؛ وأسأل الله أن يرزقك قصرًا في الفردوس الأعلى.

منازل من شجر المسافر

أن يعيش الإنسان في مسكن لا يؤويه، ومنزل لا يستره في العراء أو الهواء، ولا يدفع عنه الهوان؛ فإن الأمر جد صعب، هذا هو حال منازل أبناء القبائل في مدغشقر؛ فكيف تُبنى، وكيف يعيشون فيها؟.



طريقة بنائهم للبيوت طريقة خاصة وغريبة جدًّا، فهي ترتفع عن الأرض من أجل الأمطار، نحن زرناهم في فصل الصيف بالنسبة لنا في شهري يوليو وأغسطس، لكنها بالنسبة لهم شتاء، والبرد قارس خاصة في الليل.

لكن كيف تُبنى هذه البيوت؟ ما هو شكل أثاث هذه البيوت؟ ومن يسكنها ؟ دخلنا أحدها لنتعرف على معالمه.

ابتداءً ممنوع أن تدخل البيت بالحذاء، هم أساسًا قد لا يملكون الحذاء، وقد تعبنا من خلع الحذاء.

البيت فيه طيور، وبه مكان للطبخ، ويطبخون بالخشب، وأحيانًا قد تحترق البيوت بغلطة نسيان للنار.

أثاث المنزل بسيط للغاية؛ عائلة البيت الذي دخلناه مكونة من زوج وزوجة وثلاثة أبناء، ملابسهم معلقة، وفرشهم عبارة عن حصير، وهذا قمة في التحضر أن يكون عنده حصير ينام عليه.

بالمنزل وجدنا أدوات الزراعة، ووجدنا مجداف البحر وهو مهم عندهم كثيرًا. يضعون على الجدران بعض الملصقات لتعلم اللغة العربية، وعندهم مصحف بعنوان «يَسرنا القرآن».



هذا كل أثاث البيت وهو عبارة عن غرفة هي كل البيت، حتى بيت ملك القرية في الغالب يكون غرفة واحدة مقسمة إلى أربعة أقسام؛ هذا البيت تكلفة عمل اليد فيه ستون دولارًا للعاملين جميعًا، حوالي عشرة من العاملين يتقاضون ستين دولارًا، والتكلفة الإجمالية لهذا البيت لا تتجاوز تقريبًا الألف دولار.

اللافت للنظر في قرى مدغشقر أن أغلب منازلهم تتجه إلى جهة الشمال، وتكون أغلبها في اتجاه واحد، ثم يضعون بوابة من جهة الشمال لا يُسمح بالدخول منها، وقد حاولت مرة الدخول من جهة الشمال فأُخبرت أن هذه خطيئة وحرام، وأن عليك فدية لو دخلت؛ وهذا تقديس لجهة الشمال، سألنا بعضهم عن السبب فلم يفدنا أحد عن ذلك، لكن كأن في هذا إشارة إلى أصول الأجداد في الشمال، وبالنسبة لهم هذه الوجهة تمثل مكة المكرمة جهة الكعبة، وبالتالي جهة الشمال مقدسة عندهم

ومحترمة. بل إن بعض القبائل هنا تحترم جهة الشمال، فلا تمد الأرجل داخل البيت إلى جهة الشمال.

والذبح في الغالب يكون إلى جهة الشمال، وهذا الاحترام للشمال كأنه احترام للقبلة، وهذا من العادات التي انتشرت عندهم ولا يدرون ما السبب فيها.

يحدثنا الدكتور السميط عن بيوت القبائل في مدغشقر فيقول:

(هذه البيوت كلها مبنية من خشب أشجار في الغالب يكون خشب شجرة المسافر، يأتون باللحاء ويفتحونه ويصممون به البيت ونادرًا ما توجد به مسامير.

وهذا معناه أن كل شيء في هذا البيت محلي، بما فيه الغطاء الذي يعلو المنزل فهو عبارة عن ورق شجر المسافر حيث يحميهم من المطر، ودائمًا أرضية البيوت تكون مرتفعة عند قبائل الأنتيمور، بسبب الأمطار، فالأمطار غزيرة جدًّا. وعادةً الدجاج يختبئ تحت البيت.

وهذا البيت يمكن أن يبقى عشر سنوات وأكثر بدون أي صيانة، إذا أُحسن اختيار ورق شجر المسافر جيدًا).

حيوان الليمور النادر





من الحيوانات النادرة في العالم حيوان يسمى الليمور، وهو حيوان لا يوجد سوى في مدغشقر، ويسميه الباحثون ليمور مدغشقر، فهو من أرقى أنواع القرود. وهذا النوع يواجه خطر الانقراض، رغم أن التعرض له مُجَرَّمٌ قانونًا من قبل الحكومة.





وهذا النوع من أذكى الحيوانات، وهو يتغذى على الفاكهة كالموز، بالإضافة إلى ثمار الجوز.

وقد كشفت الدراسات عن ظاهرة عجيبة في حياة هذا الحيوان ألا وهي هيمنة الأنثى على الذكر، فهي أي الأنثى تستوي على أغصان الأشجار العليا، بينما تجلس الذكور في تواضع على الأغصان الدنيا.

يقول الدكتور السميط عن هذا الحيوان:

(حيوان الليمور نوع من القرود ولكن أقرب ما يكون إلى القط، وهذا النوع لا يوجد في أي مكان في العالم إلا هنا، وهو حيوان من الممكن أن تستأنسه، وغالبًا ما تلقاه بالغابات.

وهذا الحيوان ممنوع تصديره للخارج، لكن في الحقيقة أنا رأيته يباع في الخارج في هولندا.

والحيوان حريص على أبنائه بطريقة فوق الوصف، فإذا ولدت طفلًا لا يمكن أن تسمح لك بلمسه أبدًا.

أنا رأيت مرتين في مراكزنا الليمور، يأتي الحيوان يفطر معنا، يأكل معنا، ثم يعود للغابة، وتستطيع أن تلعب معها، وأن تداعبها بالضرب لا يهم، لكن لا يمكن أبدًا أن تلمس ابنها).

عسل الليتشي

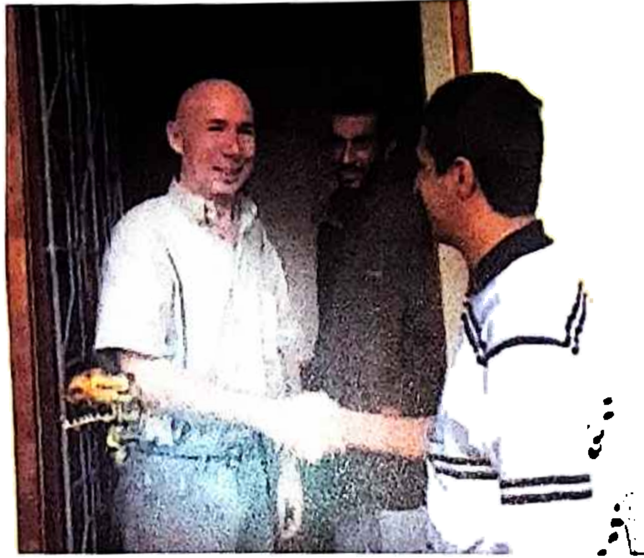
رغم جمال الحياة، وكثرة الموارد من الأنهار والغابات؛ إلا أن أكثر الأعمال والحرف في أيدي الأجانب، حيث يُتهم أبناء هذه البلدان بالكسل، فبعض الأعمال اليسيرة والتي يحتاجها العالم لا يقومون بها رغم ندرتها، وعدم وجودها سوى عندهم.



فمثلًا العسل النادر المسمى «ليتشي» يملك زمامه عدد من الفرنسيين حيث زرنا أحد المصانع، واطلعنا على أنواع العسل به، وتعرفنا على كيفية تحضيره.

يحدثنا أحد المختصين في صناعة العسل جنوب مدغشقر فيقول:

(هذا العسل يسمى عسل ليتشي، وهو مستخرج من زهرة فاكهة الليتشي التي تثمر في شهر أغسطس، وهذا عسل صافٍ غير مختلط مع أزهار أخرى، وعسل ليتشى هذا له مذاق جيد، لأنه يتكون من هذه الفاكهة فاكهة الليتشى النادرة جدًّا. ويعتبر من أجود أنواع العسل في العالم، وهو جيد جدًّا لتحضير الحلوى، وفي نفس الوقت هو جيد لعلاج قصبة الحنجرة، وأمراض الأنف).



في طريق العودة إلى العاصمة كانت الغابات الكبيرة والأشجار تحيط بالمنطقة؛ والمرتفعات الجميلة تشير إلى فجر مشرق بإذن الله لهذه المنطقة؛ وفى البحيرة الكبرى في تانا والتي توسطت العاصمة يجلس المتأمل ليتساءل:

ماذا عن الأجداد عندما جاءوا إلى هنا قبل مئات السنين يحملون معهم دعوة الإسلام؟.

لماذا انطمست هذه المعالم وأين الأحفاد من حمل الرسالة عنهم؟

تساؤلات بحاجة إلى إجابات عملية!!.

كينيا تتمة الرحلة

انتقلنا من جزيرة مدغشقر إلى كينيا، حاملين معنا الهموم والآمال، هموم للوضع المتردي للمسلمين، وآمال لما شاهدناه من جهد وثقة وعزيمة من العاملين.

وفي أثناء الطريق، وعندما كنا في الطائرة، أعلن قائد الطائرة أننا نمر على جبل كليمنجاروا وهو واحد من أكبر الجبال في العالم، بل هو أعلى قمة في أفريقيا، حيث يقع في الحدود بين تنزانيا وكينيا، شاهدناه ونحن في الطائرة، وقفز الناس لمشاهدة القمة.



جبل غريب؛ من يصدق أن جبلًا قريبًا من خط الاستواء قمته مليئة بالثلوج، وبه مناظر خلابة من الأشجار النادرة، والغابات والنباتات الكثيفة، حتى الزهور والحيوانات والعناكب لها مكانها في الجبل.

وصلنا إلى نيروبي عاصمة كينيا[1]، وكان في استقبالنا بعض العاملين في المجال الخيري، حيث صحبناهم في سيارتهم إلى مقر إقامتنا.

يحدثنا أ. إسماعيل حسن – المدير الإقليمي للجنة مسلمي أفريقيا بجمهورية كينيا فيقول:



(كينيا بلد أفريقي تقع الصومال في الجهة الشرقية منها، والجهة الشمالية أثيوبيا، والشمالية الغربية السودان، والغربية أوغندا، والجهة الجنوبية تحدها تنزانيا، والجنوب الشرقي يحدها المحيط الهندي.

(١) تقع كينيا في شرق أفريقيا؛ وتغطي مساحة قدرها خمسمائة واثنان وثمانون ألفًا وستمائة وخمسون كيلومترًا مربعًا، عاصمتها نيروبي؛ وتقع كينيا على جانبي خط الاستواء، بين دائرتي عرض خمس شمالًا ومثلها جنوبًا؛ تشغل المياه مساحة قدرها ثلاثة عشر ألف كيلومترًا مربعًا وأكبر المدن هي العاصمة نيروبي. وتمتاز كينيا بالبحيرات والأنهار والغابات حيث تنتشر الحيوانات في غابات محمية وغير محمية ؛ عند زياراتنا المتعددة للقرى والقبائل نصادف أنواع الحيوانات من الزرافات والوعول والمها والغزلان وغيرها من الحيوانات المختلفة وفى بعض الأماكن لابد من الحذر لوجود الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور.

وكينيا كانت مستعمرة بريطانية، وتنقسم إلى أقاليم ثمانية، ويبلغ عدد سكانها اثنان وثلاثون مليونًا حسب الإحصائية التي أجريت في عام ٢٠٠٢م، وتبلغ نسبة عدد المسلمين فيها ما بين خمسة وثلاثين إلى أربعين في المائة[1].

وكما قلنا تحدها في الجهة الشرقية الصومال حيث يوجد خليج العقبة ومنه دخل الإسلام إلى كينيا عبر طريق الصومال قديمًا يقال إنه دخل في القرن الثامن الهجري، ويوجد في كينيا إقليم اسمه كوست هذه المنطقة يسكنها أغلبية المسلمين الموجودين في كينيا، وأصولهم كلها عربية.

وكينيا كانت بها جزر إسلامية سابقة في مدينة تسمى مدينة ماليندى، بقربها توجد دويلة إسلامية سابقة من الدويلات الإسلامية التي كانت في الجزء الساحلي لأفريقيا، المقابل للحجاز، هذه المنطقة كان يوجد فيها أناس من البانتو، أي الأفارقة الأصليين، إلا أنهم بحكم دخول الإسلام أو دخول العرب إلى هذه المنطقة، تزاوجوا منهم حتى تولّد منهم جنس يُسمى بالجنس الساحلي، ويسمون بالسواحليين.

واللغة الرسمية لكينيا تسمى اللغة السواحلية وينطق بها سكان كينيا، تنزانيا، أوغندا، زائير، رواندا، وبروندي).

نيروبي عاصمة حالمة؛ تنتعش بها الحياة كل صباح حيث يخرج الناس إلى أعمالهم في زحام شديد، وحركة مستمرة، حتى إذا أقبل الليل دب الخوف في المدينة بسبب عصابات السرقة فلا خروج في الليل. فليل نيروبي ليلٌ تقل فيه الحركة، صورته البعيدة تُشعر بالجمال، لكن حقيقته مخيفة، إذ يمنع الخروج في الليل للأجانب نظرًا لكثرة العصابات.

---

(١) يبلغ عدد السكان عام ٢٠١٣م (٤٥) مليون نسمة ، ونسبة المسلمين تصل إلى ٣٠٪ .

خططنا لزيارة شمال كينيا للاطلاع على عادات القبائل هناك؛ لكن التلفاز الرسمي الحكومي أعلن عن وجود مذابح هائلة في الشمال، ونقل صورًا للمذابح ومُنع السفر إلى هناك.

المسجد الجامع بنيروبي



عندما تتجول في مدينة نيروبى يشُد انتباهك تلك المآذن الباسقة حيث يوجد في نيروبي عدد من المساجد والمصليات لكن أشهر تلك المساجد ؛ مسجد أبي بكر الذي بنته جمعية إحياء التراث الإسلامي، ومسجد جاميا وهو أكثر المساجد أهمية في كينيا، ويقع في شارع (باندا) في حي الأعمال المركزي، وهو أقدم مسجد في نيروبي، كان بناؤه عام ١٩٢٦مـ على الطريقة الهندية الجميلة، وهو يتكون من حرم يسع حوالي مائة وخمسين مصلٍ، وبه ساحة خارجية تسع لأكثر من ألف وخمسمائة مصّلٍ.



عند أبواب المسجد الجامع تُطالع الباعة الذين اصطفوا لبيع الطواقي المعروفة في كينيا، وهى شعار للمسلم غالبًا، وهناك باعة آخرون لبيع السواك، أو الأراك الصومالي الشهير بقسوته وقوته وكبره؛ وإذا دخلت المسجد الجامع انشرح صدرك لما تشاهده فيه من المسلمين التالين لكتاب الله تعالى.

أما في صلاة الجمعة فالمسجد يكتظ بالمصلين الذين تمتلئ بهم الساحات الخارجية والحدائق المجاورة، وقد أُقيم للمسجد الجامع توسعة إضافية على نفقة الشيخ زايد آل نهيان رحمه الله، ولا يزال المسجد بحاجة إلى التوسعة.

وعند الخروج من المسجد من البوابة الخلفية يستوقفك مبنى أصبح حجر عثرة في توسعة المسجد فما هو يا تُرى؟!..



إنه مبنى لمكتبة نصرانية، رفضت الكنيسة بيعها لصالح المسجد، وحاولت جهات إسلامية عديدة التدخل لكن دون جدوى.

ويتبع للمسجد الجامع الكبير في نيروبي مكتبة عامة، يؤمها الطلاب طيلة أيام الأسبوع عدا الأجازة؛ حيث يستفيدون من الكتب العلمية فيها ويمضون وقتهم للمطالعة والفائدة.



يحدثنا أمين مكتبة المسجد الجامع بنيروبي فيقول:

(اسمي رمضان محمد عباس، أمين مكتبة الجامع في وسط المدينة نيروبي بكينيا. هذه المكتبة أسست في عام ١٩٩٥مـ وبها تقريبًا ستة آلاف كتاب.



والمستفيدون من المكتبة هم الشباب المسلم في منطقة نيروبي، وفي بعض الأحيان نُصَرِّح أيضًا للطلاب غير المسلمين باستعمال المكتبة، وعددهم قليل جدًّا وهم طلاب بالمدارس الحكومية والجامعات. فالمكتبة مفتوحة لكل من يرغب في استعمالها.

والكتب الموجودة بالمكتبة هي: الكتب الدينية مثل ؛ التوحيد، الفقه، السيرة، وبها أيضًا بعض الكتب اللغوية مثل اللغة العربية، واللغة الإنجليزية.

وأيضًا توجد كتب مترجمة إلى اللغة السواحلية، وهذه هي اللغة المحلية المستعملة في شرق أفريقيا.

وعندنا خدمات أخرى مثل تعليم المسلمين الجدد، وخدمات الباحثين وعروضات الفيديو الدعوية والتعليمية.

والمكتبة تكون مفتوحة طوال أيام الأسبوع من الساعة التاسعة صباحًا حتى الخامسة بعد العصر، والعطلة الأسبوعية هي يوم الأحد.

والعاملون في المكتبة رسميون حيث يوجد ثلاثة موظفين، واحد منهم يقوم بتنظيف المكتبة، والآخر حارس على باب المكتبة، وأنا).

سألت أمين المكتبة هل هناك حاجة إلى كتب معينة تحتاجها المكتبة؟.

فكان جواب أمين المكتبة:

(نحن في حاجة ماسة لمزيد من الكتب، فكما ترون توجد في المكتبة بعض الرفوف ليس عليها كتب، وأيضًا نطلب من المحسنين من أي مكان أن يتبرعوا بالكتب الدينية، لكي نستفيد منها في كينيا.

فنحن نحتاج الكتب التاريخية، وكتب الحديث، وأيضًا كتب في الشريعة الإسلامية والتفسير، فنحن نرحب بجميع الكتب سواء كانت مكتوبة باللغة العربية، أو الإنجليزية).

في هذه المكتبة عدد كبير من الكتب خاصة باللغة العربية، والتي تبرع بها عدد من المحسنين، وقد يستغرب البعض إذا سمع أن عددًا من طلبة العلم يبحثون عن حديث نبوي واحد في هذه المكتبة لأن الواحد منهم لا يملك أي كتاب للحديث.

ويوجد بالمكتبة قسم يخدم النساء، وذلك بتوفير مكان مخصص لهن، وعند رغبة الباحثة في الحصول على كتاب معين تقوم بتدوينه على ورقة ثم يحضره مسئول المكتبة لها.

إمكانيات المكتبة بسيطة، ومع ذلك فهي عصب طلبة العلم في نيروبي، وهي مرجع معلوماتي كبير لهم، فماذا يا تُرى سوف نقدم لهم؟.

الكلية الشرعية في ثيكا بكينيا

توجهنا إلى ثيكا والتي تبعد عن نيروبي حوالي الساعة؛ طريقها تملؤه أشجار القهوة والأناناس، وهي سادس المدن أهمية في كينيا.

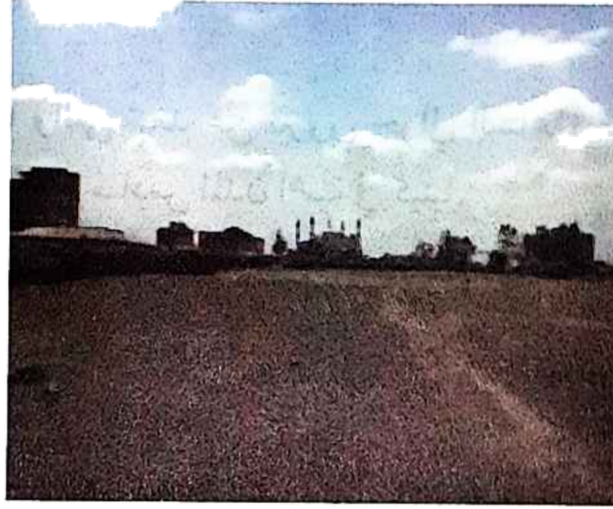
ونسبة المسلمين فيها لا تتجاوز خمسة بالمائة، وقد أقام النصارى بها عددًا كبيرًا من الكنائس، وإن كانت مهجورة، ولكنهم يريدون أن يصبغوا عليها الصبغة النصرانية.

وهناك يُطالعنا المركز الإسلامي التابع لجمعية العون المباشر، وبه الكلية الشرعية، والتي قُمنا بزيارتها، ورحب بنا عميدها وتحدث إلينا قائلًا:

(اسمي دكتور موسى محمد الطيب علقم من السودان، أستاذ في جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، عميد كلية ثيكا للشريعة والدراسات الإسلامية بجمهورية كينيا منذ عام ١٩٩٩م.



هذه الكلية أُنشئت لتعليم أبناء المسلمين في كينيا العلوم الإسلامية، وهذه الكلية أُسست على أساس أن تنتسب إلى جامعة من الجامعات، وأخيرًا استقر الرأي على أن تنتسب إلى جامعة أفريقيا العالمية في السودان.



وتم الانتساب في عام ٢٠٠٣مـ وهي تمنح درجة البكالوريوس في تخصصين؛ قسم الشريعة، وقسم الدراسات الإسلامية. عندما بدأت هذه الكلية بدأت وسط مجتمع ينقسم إلى قسمين؛ مجتمع تخرج من المدارس الحكومية الكينية وهؤلاء لا يعرفون شيئًا لا عن اللغة العربية ولا عن الدراسات الإسلامية، فقررت الكلية أن تُدرس هؤلاء اللغة العربية لمدة عام كامل تُعطيهم بعد هذا التخرج شهادة أنهم مؤهلون في تعلم اللغة العربية.

وهناك أيضًا القسم الثاني من المسلمين الذين درسوا في المدارس الأهلية الخاصة بالمسلمين، وهؤلاء لا يعرفون شيئًا عن اللغة الإنجليزية، وبالتالي قررت الكلية أن تمنحهم أيضًا شهادة في تعلم اللغة الإنجليزية.

ثم يجتمع هؤلاء الطلاب مع بعض في السنة الأولى، ولا شك أننا فعلنا ذلك لأن الهدف الأساسي هو نقل الإسلام إلى القبائل المتعددة، وكل هذه القبائل لا تعرف اللغة العربية، وبالتالي لابد أن يُنقل إما باللغة الإنجليزية، أو باللغة السواحلية، ومن

ثم أصبحت اللغة الإنجليزية في هذه الكلية هامّة جدًّا، وإلزامية لكل الطلاب من التمهيدي وحتى السنة الرابعة؛ والحمد لله قطعوا شوطًا كبيرًا في هذا.

وقد كان من أهم أهداف هذه الكلية هو تخريج دعاة إلى الله سبحانه وتعالى وسط قبائلهم، ووسط بيوتهم، والهدف الثاني أيضًا هو أن تُخرِّج عدداً من الطلاب يحملون عبء الإمامة والفتوى، وتقسيم الأرث عند الوفيات، وما إلى ذلك.

والحمد لله بدأت الكلية من أول عام بتسعين طالبا؛ ستون منهم تمهيدي اللغة العربية، وثلاثون تمهيدي اللغة الانجليزية، ثم استمروا للسنة الثانية والسنة الثالثة والسنة الرابعة، وتخرجت الدفعة الأولى ولله الحمد، وقد ارتفع العدد إلى مائة وعشرين، ثم ارتفع إلى مائة وثمانين، ثم ارتفع إلى مائتين وعشرين، وأخيرًا الآن ارتفع العدد إلى مائتين وتسعة وثلاثين طالبًا.

جُلّ هؤلاء في مرحلة التمهيدي، العربي والإنجليزي، والإقبال على اللغة العربية كبير جدًّا، لكن هؤلاء الذين يأتون للتمهيدي العربي عدد قليل منهم هو الذي يصعد إلى السنة الأولى حوالي أربعين إلى خمسة وأربعين طالبا ينتقلون إلى الصف الأول، الآخرون إما لأنهم يعجزون ويُفصلون فصلًا أكاديميًّا، أو أنهم يتعلمون اللغة، وينصرفون إلى دراسات في جامعات أخرى في كينيا وغيرها.

والخريجون الحاصلون على البكالوريوس دائمًا عددهم لا يتجاوز عشرين إلى تسعة وعشرين طالبًا. وهناك أنشطة لهؤلاء الطلاب، وهذا أهم عمل لهذه الكلية والمتمثل في الأنشطة الدعوية؛ وهي أنشطة متعددة جدًّا، منها دعوة داخل نطاق الكلية بمنطقة ثيكا، منطقة الحي الذي نسكن فيه، وهو حي مسيحي جميعه، إلا عدد قليل من المسلمين.

فالدعوة الداخلية تبدأ في مسجد المركز، وهو مسجد اللجنة في مركز ثيكا، وتقريبًا منذ أن جئت منذ عام ١٩٩٩م إلى الآن أسبوعيًّا يكاد يُسلم واحد الحمد لله.

ثم هناك حول الحي الذي أُسست فيه الكلية مدارس ابتدائية، ومدارس ثانوية، ومعاهد تربية للمعلمين، كل هؤلاء يذهب الطلاب لتعليمهم الإسلام، والصلاة بهم في يوم الجمعة وأداء الخطبة لهم.

كذلك هنالك أحياء وقرى فقيرة جدًّا كثير منها يذهب إليها الطلاب، ويبيتون يومي السبت والأحد لتعليم النساء والأطفال والرجال تعاليم الدين الإسلامي، ويهتدي بفضل الله عدد كبير منهم، ويعلمونهم بعض سور القرآن القصيرة كالفاتحة والمعوذتين، ويعلمونهم كيف يُصَلُّون ويدربونهم على هذا.

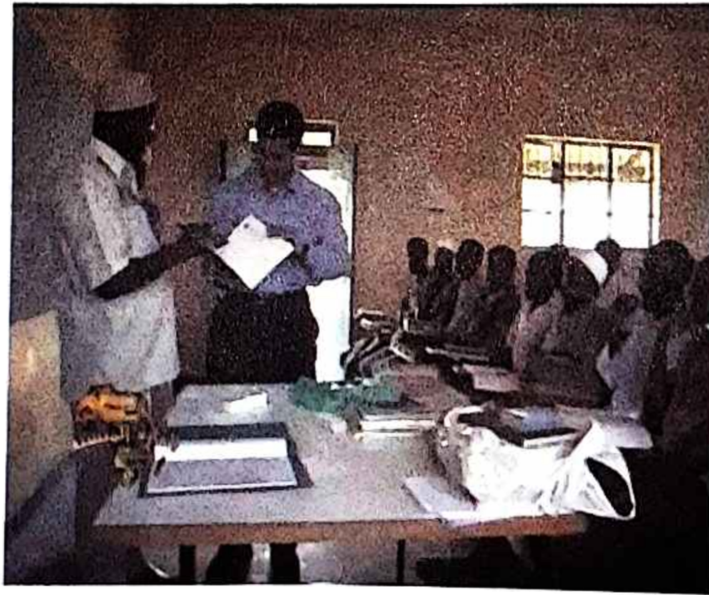
الجانب الثالث هناك قوافل دعوية لمناطق بعيدة لمناطق البورانيين ومناطق الجرياما ومناطق الديجو ومناطق الأوكامبا وبعض مناطق الكوكويو؛ وهذه القوافل البعيدة تستغرق في حدود الشهر، والقافلة تحتوي على عشرين طالبًا إلى ثلاثين طالبًا، يذهبون في هذه المدة ليشرحوا الإسلام للناس، ويعلموا بعض الناس؛ وتُسلم أعداد كبيرة جدًّا منهم، ولكن يصعُب علينا متابعتهم، وبالتالي فإن هؤلاء نتعهدهم سنويًّا بذهاب بعض الطلاب إليهم إما في قافلة دعوية، أو في إجازاتهم العادية ليواصلوا التعليم الإسلامي لهؤلاء الناس.

وفي كل مرة ولله الحمد تُسلم أعدادٌ كبيرة جدًّا؛ على سبيل المثال ذهبت الكلية في قافلة دعوية عام ٢٠٠٤م واستمرت القافلة شهرًا، أسلم خلالها ثلاثمائة فرد منهم أُسر كاملة.

تذهب أيضًا القوافل إلى مناطق مسلمة ولكنها بحاجة للتعلم فالكلية تنظم قوافل دعوية إلى منطقة هولا، وهي منطقة معروفة بفقرها، وإن كانت مائة في المائة مسلمين، ولكنهم فقراء، ولا يعرفون شيئاً عن الإسلام، ويسكنون في الغابات، وقد ذهبنا إليهم، ومكثنا معهم خمسة عشر يومًا لتعليمهم الإسلام، وكانوا يرحبون بنا ترحيبًا حارًا.

وهناك أيضًا منطقة كليفيا أو منطقة الساحل؛ وهي منطقة فيها قبائل الديجو، وقبائل الجرياما، وقبائل السواحليين وأصولهم عربية ولكنهم نسوا الإسلام، تذهب إليهم قوافل الكلية الدعوية وتدعوهم وتعلمهم التعاليم الإسلامية).

دخلنا أحد فصول الكلية لنتعرف على طبيعة الدراسة عن قرب؛ ألقيت تحية الإسلام على الحضور، ورحب بنا المدرس وبعد الترحاب أخبرنا أن هذا الفصل خاص بالتمهيدي العربي، وأن الطلاب يأتون من المدارس الثانوية العامة؛ وقبل أن يدرسوا أي مواد لها علاقة باللغة العربية يلتحقون بهذا القسم؛ فيقضون سنة كاملة، ويتأهلون بعدها للدخول إلى الكلية.

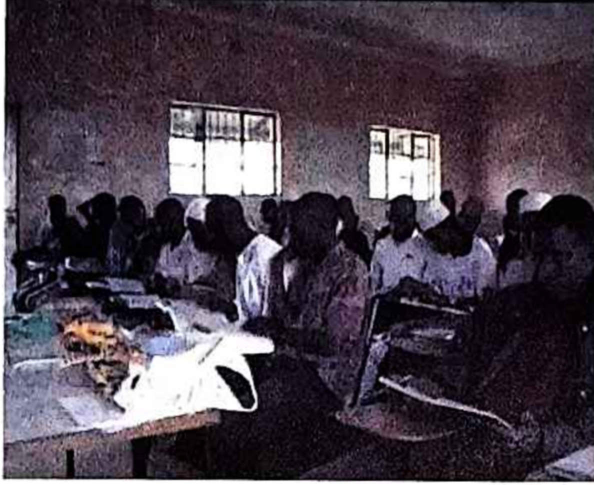


سألت المدرس: هل معنى ذلك أنه لم يكن عندهم أساسيات في اللغة العربية؟

فأجابني المدرس قائلًا:

(بعضهم عندما يأتون قد يكون لديهم شيء من القرآن الكريم؛ لكن معظمهم من القبائل المستهدفة، وبعضهم قريب العهد بالإسلام؛ وعندما يأتوننا نُجري لهم امتحانًا، فنجد أن معظمهم لا يجيد حتى كتابة الأبجدية العربية؛ فيمكثون معنا ونبدأ معهم من الأساس من الصفر.

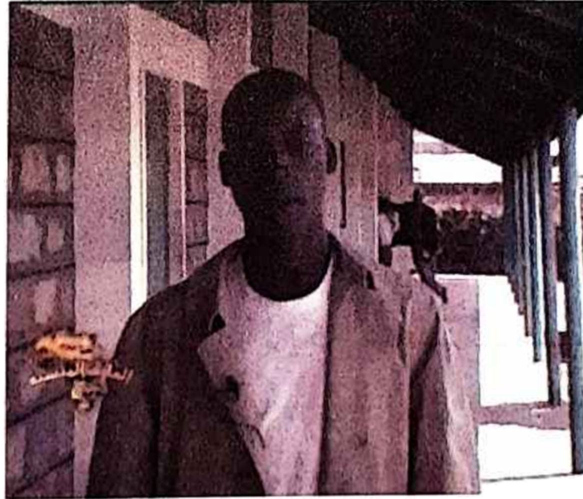
ونتدرج معهم إلى أن نتمكن من تأهيل عدد كبير منهم كي ينتسبوا إلى الكلية، ويدرسوا بلغة عربية فصيحة ويتمكنوا من التعامل مع المواد التي تدرس في كلية الشريعة.



ونحن هنا نعتمد في مرحلة تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها على منهج جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).

ويحكي لنا عبد العزيز تيتو أحد الطلاب بالكلية عن قصة إسلامه والتحاقه بالكلية فيقول:

(أنا عبد العزيز تيتو كونيوك من قبيلة تركانا التي تعيش في الجانب الشمالي من كينيا؛ أسلمت عام ١٩٩٩م.



وكان سبب إسلامي أنني كنت أطلع على بعض الكتب التي كتبها الشيخ أحمد ديدات، وكنت أقرؤها، وكنت وقتها في الثانوي الحكومي، وكان عندي زملاء في الدراسة، وحاول زملائي أن يساعدوني في التعرف على بعض المعلومات، وأسلمت.

ولما أسلمت واجهت مشكلات كثيرة، فالناس لم يرغبوا في إسلامي، لأن القساوسة هم من كانوا يكفلونني في الدراسة؛ ولما أسلمت حاربوني كثيرًا، فالكنائس تُشَوِّشُ على الناس في ذلك المكان، وتبث أفكارًا سلبية ضد المسلمين، وتحارب المسلمين، وتحارب التوجهات الإسلامية.

ثم قام أهل البلد بطردي؛ وقالوا لي أنت الآن أسلمت ونحن سنمنع عنك كل شيء.

ولما عرفت أن هناك كلية ثيكا للشريعة والدراسات الإسلامية جئت إلى هذه الكلية، ولم أكن أعرف أي شيء عن الإسلام واللغة العربية.

وبدأت بالسنة التمهيدية، وتعلمت اللغة العربية، ودخلت في السنة الأولى، وأدرس الآن في هذه المرحلة، الحمد لله.

والهيئة التي تكفل لي الدراسة هي لجنة مسلمي أفريقيا، وأتمنى في الدراسات العليا أن تكون هذه الهيئة أو هذه اللجنة هي التي تساعدني في الالتحاق بالدراسات العليا الماجستير والدكتوراه.

وأنا آمل أن أكون من الرواد الذين يقودون الدعوة في منطقتي لأن هذه المنطقة منطقة تخلفت جدًّا من ناحية الدعوة، من ناحية الإسلام، فعدد المسلمين من قبيلتي قليل جدًّا، وليس هناك دعاة يدعون الناس إلى الإسلام، وليس هناك قادة يقودون الناس إلى الخير، وليس هناك مؤسسات إسلامية تبث الثقافة الإسلامية والتوجيهات الإسلامية.

ولذلك نطمع في أن تكون هناك مؤسسات تدير وتساعد في نشر الدعوة في هذه المنطقة.

وبالنسبة للمسلمين في ذلك المكان فهم قليلون جدًا، والذين دخلوا في الإسلام ليس هناك ما يثبتهم، لأنهم يجهلون الدين ولا يعرفون تعاليم الدين، وليس هناك أي جهة تساعدهم في هذه الأشياء.

لذلك فنحن نطلب منكم أن تساعدونا في نشر الدعوة في هذا المكان، وفى إنشاء المؤسسات التي تنشر الدعوة، وتنشر الثقافة الإسلامية، وتساعد الناس في المأكل والمشرب، لأن الناس رُحل ليس عندهم شيء يأكلونه، وليس عندهم شيء يلبسونه، ولا توجد عندهم مدارس ولا مستشفيات).

أما الطالبات فهن مثال رائع جدًا للحشمة والعفة والأخلاق، حيث انضم لهذه الكلية عدد من المسلمات، والمهتديات اللواتي رغبن في تعلم الدين الإسلامي، واللغة العربية، ليصبحن داعيات لدى بنات جنسهن.

تقول إحداهن:

(سأتكلم عن نفسي أولًا، ثم عن مكانة المرأة في هذه القرية.

اسمي فاطمة، وأنا في السنة الأولى في هذه الكلية، يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1]، وكذلك يقول الله ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، وقد قال رسول الله ﷺ: (من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)[3]، وقد قلت إنني أريد أن أتفقه في الدين وأطبقه في حياتي، والحمد لله على نعمة الإسلام، وقد استطعت بقدرة الله أن أطبق بعض الأشياء في حياتي ومنها:

أنني ربتني ابنة عمي وكانت تناديني باسم زوجها فلما عرفت أنه لا يجوز في الإسلام أن تسمى باسم غير الأب؛ لأن الله يقول في القرآن ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ

(١)سورة المجادلة: الآية ١١.

(٢)سورة الزمر: الآية ٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه ح (٧١) من حديث معاوية بن أبي سفيان .

﴿أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] فحولت اسمي إلى اسم أبي، فستجدون في شهادتي كان اسمي فاطمة حسين، ولما عرفت انه لا يجوز غيرت اسمي إلى فاطمة سند اسم أبي.

وكذلك الحمد لله استطعت أن أطبق الحجاب، وهذا كله نعمة من الله، وقد قال عمر رضي الله عنه: أعزنا الله بالإسلام ومن ابتغى بغير الإسلام عزًّا أذله الله. وكذلك كان من أهدافي في الالتحاق بهذه الجامعة هو تعليم الناس ما هو خير لهم، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، لأن الرسول ﷺ يقول (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[2].

وكذلك كما نعرف فإن المرأة تساوي نصف المجتمع فعلينا كنساء أن نتعلم أمور الدين. وإذا انتقلت إلى مكانة المرأة في هذه القرية فنجد أولًا أن المرأة ضعيفة فالوالدان يفضلان الأولاد عن البنات، فالمرأة تُحتقر، ولا تجد علمًا، فهم يرون أن طلب العلم للرجال دون النساء.

وكذلك يرون أن المرأة عملها أن تتزوج ثم بعد ذلك تنجب وتربي أولاد؛ ولكن كيف هي تربي أولاد يعرفون الدين وهي نفسها ليس عندها دين. ستجدون أنها تُزوج ولم تتعلم الدين وهذا يُسبب كثيرًا من الطلاق.

وفي هذه الأيام نجد دعوات أعداء الإسلام الذين يريدون حرية النساء والمساواة، ولأن النساء ليس عندهن دين تجدهن يقلدن الكفار، فهن لا يعرفن أحداً من القدوات المسلمات في الماضي أو الوقت المعاصر.

كذلك يرون أن الرجوع إلى الدين هو سبب التخلف، فنجد نساء مسلمات عاريات كاسيات، ونجد مشاكل كثيرة خاصة في الحجاب، لأن كثيرًا من النساء يهتمون بأمور الدنيا، ولا يهتمون بالآخرة.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ح (٥٠٢٧) من حديث عثمان بن عفان (رضي الله عنه).

كما أن البيئة التي تحيط بنا بيئة فاسدة، فستجدون دعوة الجاهلية ولأن النساء ليس عندهن علم كثير فسيميلون إلى هذه البيئة، وهذا ليس بجميل. كذلك نجد مشكلة في الثقافة، فيوجد التفاخر بين القبائل، وهذا يسبب مشكلة للمرأة، فقد تكون متدينة وتتزوج برجل غير متدين، ومثل هذا الزواج لا يدوم ولا يستمر وقد قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

إن الدعوة في منطقة ثيكا تلقى إقبالًا كبيرًا بحمد الله؛ حيث يتوجه الناس أفواجًا إلى المسجد الكبير في ثيكا، بل إن بعض المسلمات يرسلن أولادهن لتعلم القرآن الكريم، والعقيدة، ومبادئ الإسلام، وهذه الأمور المفرحة تدفع النفس إلى العمل والجد وبذل المزيد في سبيل نشر دعوة الحق في كل مكان).

توجهنا بعد ذلك من ثيكا إلى نيروبي مرورًا بالشلالات الجميلة حول المدينة، والتي حُميت بسياج كبير، نظرًا لقوة دفع الشلالات المستمرة طوال العام[2].

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) أعرضت في هذا الكتاب عن ذكر عدد من المشاهد والزيارات السياحية لأن مرادنا هنا يتعلق بالدكتور السميط رحمه الله . أما غرائب الزيارة الأخرى فلك أن تشاهدها كاملة في موقعي الخاص www.falsunaidy.com

مزارات كينية شاهدة على حضارة الإسلام

مدينة ممباسا

ممباسا مدينة ساحلية مهمة تقع في شرق كينيا، رطوبتها عالية جدًا، وهي أقرب ما تكون إلى القاهرة، فقد ذكّرتنا الأيام التي مكثناها في ممباسا بالقاهرة في كل شيء، المساجد هنا منتشرة، والمآذن مرتفعة والصلاة تقام باستمرار ولله الحمد.



وتُعد ممباسا ثاني أكبر المدن في كينيا، حيث يقطنها خليط من السكان أغلبهم من المسلمين العمانيين أو اليمنيين.

هذه المدينة ذات التاريخ العريق لا يمكن لأحد أن يجد في كينيا مرفأ أفضل منها، فهي مدينة احتوت مياه نظيفة، وشواطئ دافئة، وغابات مترامية متناسقة، إلا أن تاريخها الحربي غالب عليها.

أحرقها النصارى البرتغاليون ثلاث مرات، وقتلوا الآلاف من أهلها، واستباحوا الحرمات.

أما المباني فهي أقرب ما تكون إلى بناء المساكن في حضرموت أو عُمان، وذلك راجع للتأثر الكبير الذي حدث في البلدة بسبب قدوم عائلة المزروعي من عُمان لفك حصار البرتغاليين عنها، ومساعدة أهلها.

ويوجد بها معابد هندوسية كثيرة، وذلك بسبب كثرة الهندوس في تلك المنطقة.

وتبلغ نسبة المسلمين فيها حوالي ثمانين بالمائة، لكنها بين المثقفين لا تتجاوز عشرة بالمائة، وذلك بسبب المد الكنسي الكبير، على الرغم من انتشار المساجد والمدارس والمعاهد بها.

قلعة عيسى المسيح عليه السلام

في ممباسا توجد قلعة عيسى المسيح عليه السلام؛ بناها البرتغاليون ليتحكموا في البحر والبر في منطقة ممباسا التي لاتزال شاهدة على هذا البناء، ولا تزال بنفس بنائها.



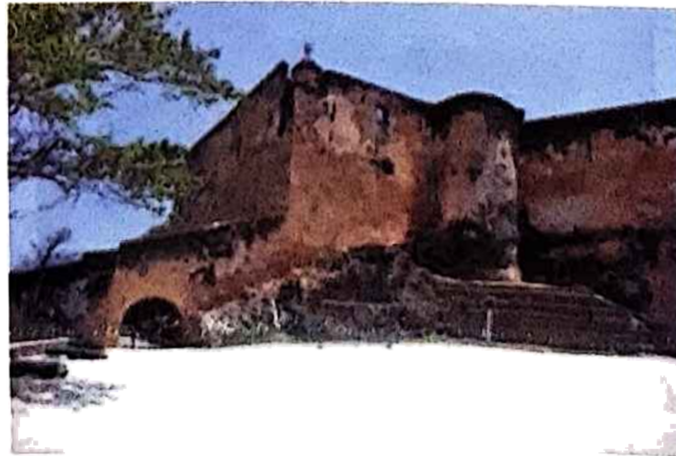
فعلى سواحل جزيرة ممباسا على المحيط الهندي شرق أفريقيا ترتفع مباني قلعة عيسى عليه السلام، والتي بناها البرتغاليون بعد أن قاموا بمجزرة هائلة ضد المسلمين.

فقد كانوا يعتبرون أنفسهم رُسل المسيح، وكانوا يرفعون الصليب على جميع سفنهم، حتى سموا القلعة بهذا الاسم.



وتضم هذه القلعة مُتحفًا، وعددًا من الآثار الإسلامية، وعددًا من القبور التي كُتب عليها بالعربية، إضافة إلى المدافع الكبيرة والقلاع الداخلية.

أبواب القلعة كما هي لم تتغير منذ صناعتها الأولى حتى الآن ولا تزال شاهدة على هذا البناء.



آثار لحضارات كثيرة بائدة تعاقبت على ممباسا، لكن الأمر الظاهر الواضح أن الوجود الإسلامي كان كبيرًا هنا في ممباسا، وأن حضارة الإسلام لا تزال شاهدة على هذا الوجود.



بل إن الآثار العمانية مازالت تدل على حضارة عائلة المزروعي العمانية التي وصل تاريخها إلى هنا... ففي عام ١٦٩٨م استجاب العمانيون لدعوة الأجداد السواحلية فهبوا لنجدة إخوانهم وأسقطوا الاستعمار البرتغالي.



وقد تولت قبيلة المزاريع «المزروعي» حكم ممباسا ما بين ١٦٩٨م - ١٨٣٧م وقد عرفت فترة حكمهم بإزدهار المنطقة وخيم الأمن والعدل عليها.

ولو قُدِّر للحمام الذي كان يُحَلِّق في سماء ممباسا أن ينطق لأكد أن حضارة الإسلام كانت شامخة، وأن أهل ممباسا شرق أفريقيا ما عرفوا فعلًا الإنسانية إلا عندما جاءهم الإسلام الصحيح.



وسيظل الأمل كبيرًا في أن يعود الوجود الإسلامي إلى أفريقيا بعامة، وشرقها بخاصة، وكلما لاحت لنا بوادر هذا الأمل فلابد أن نسعى لتحقيقه.

قرية التماسيح في ممباسا

قرية التماسيح في ممباسا من المعالم المهمة في المدينة؛ حيث يؤمها السياح باستمرار، وقرية التماسيح واحدة من أكبر بحيرات التماسيح في العالم، ففيها أكثر من عشرة آلاف تمساح.

ويقوم عليها فئة من الناس من أجل بيع جلودها الغالية جدًّا في العالم، كما أن اللحم أيضًا يُباع لبعض المطاعم الراقية هنا، وخاصة في نيروبي فهو يؤكل أكلًا لذيذًا عند بعضهم.

شاهدنا في هذه القلعة التمساح بيج دادي «الأب الكبير» لهذه التماسيح، وقد ذكر بعض المهتمين أن هذا التمساح أكل أكثر من خمسة عشر شخصًا ممن يقومون على رعاية شئون هذه التماسيح.

قلعة جيدي

قلعة جيدي؛ قلعة جميلة تقع بين غابات وأشجار ضخمة تقف شاهدة على حضارة إسلامية مضت.

هناك في القلعة صوت إسلامي منذ مئات السنين؛ دخلنا القلعة لنشاهد تاريخنا الماضي في هذه البلاد المنسية.



يقول لنا المرشد المرافق:

(في هذه القلعة قام أحد الأشراف ببناء مسجد، ولما كان له شرف تأسيس المكان سارع محبوه لدفنه هنا تخليداً لذكراه - حسب زعمهم -



كما يوجد في المنطقة سبعة مساجد أخرى أنشئت قبل ألف سنة، ويوجد بئر كان يستخدم في الوضوء، ولا يوجد بالمكان لا كنيسة ولا أي أثر للنصارى وهذا يدل على أن المنطقة إسلامية تمامًا).



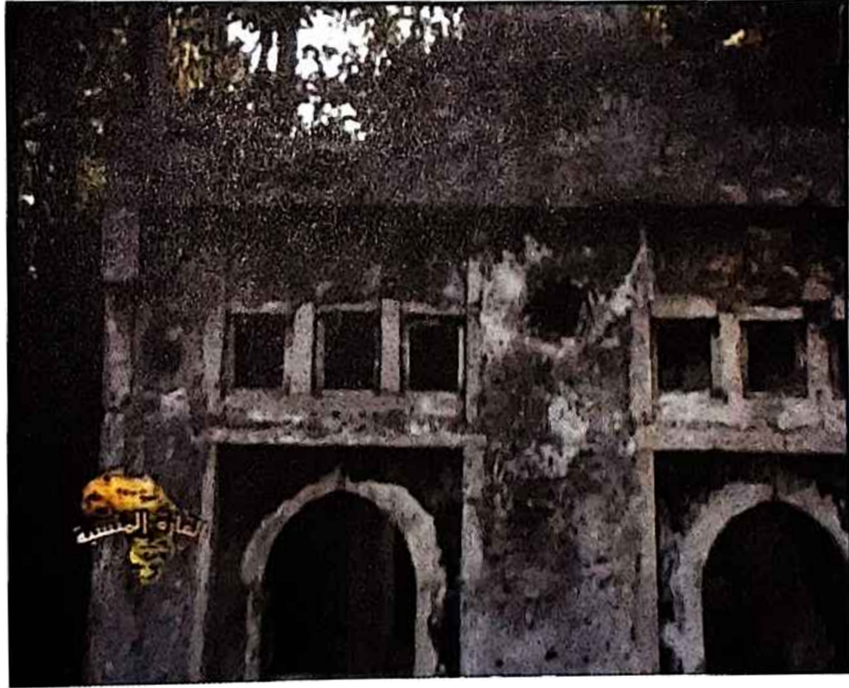
إن الوجود الإسلامي في جيدي له دلالة واضحة على أن الإسلام دخل هذه المنطقة قبل أكثر من ألف سنة؛ فالمتحف المقام بالقرب من القلعة يحمل دلالات كثيرة على أن تراث الإسلام وشواهد حضارته كانت هنا في زمن مضى. كما يؤكد المهتمون بالشؤون التاريخية أنه لا يوجد سوى المساجد في هذه الأماكن؛ فأين ذهب أهل الإسلام عن هذه المناطق؟.



الحضارة الإسلامية في جيدي قريبة من ممباسا وماليندى، وهي قريبة أيضًا من المحيط الهندي؛ حضارة إسلامية كبيرة لم تجد أي اهتمام، فأين الدارسون المهتمون بهذه الحضارة؟.

قد كانت هناك بلا شك دولة إسلامية، أو على الأقل كانت هناك قبائل إسلامية أوصلت المساجد إلى هناك قبل ألف سنة؛ فأين الباحثون والمهتمون؟.

ولماذا يحاول الغرب إخفاء الحقائق والدلائل التي تدل على الوجود الإسلامي الكبير في أفريقيا؟ أين المنصفون من مثل هذه الدراسات؟



قبائل منسية في القارة الأفريقية

قبيلة الماساي

توجهنا إلى كيجادو على بعد سبعين كيلو مترًا من نيروبي، وهي مركز قبائل الماساي الأصلية؛ فقبائل الماساي أساسًا خرجت من نيروبي، وقد كانوا يملكون غاباتها، وأراضيها.

وقبائل الماساي من أشد وأقوى القبائل؛ وقد اشتهرت بشدة بأسها وقوتها، حتى أنهم يفتخرون بإنتسابهم لهذه القبيلة؛ وهم أيضًا يتميزون بلبس معين لا يشاركهم فيه أحد فهم يحبون اللباس الأحمر.

ويعيش أفراد قبيلة الماساي على تربية الأبقار التي يعتزون بها أكثر من أولادهم، بل إن مكانة الفرد عندهم تزداد بزيادة عدد الأبقار، وتحيتهم في الغالب بعد السؤال العام؛ كيف حال أبقاركم؟!!.



وعيبٌ عند الماساي أن يبيع أحدهم البقر، فلذلك إذا احتاج أحدهم إلى المال، ولم يستطع الحصول عليه، ثم باع البقر، فإنه يتحسر ويندم لذلك، فهم يحبون البقر كثيرًا، ولا يبيعونها إلا نادرًا.





وأما أبناء قبيلة الماساي فيتدربون منذ الصغر على إصابة الهدف بعصي خشبية ذات رأس مدبب، يقذفونها من بعيد، وذلك من أجل التدريب على ضرب راعي الأبقار من غيرهم لسرقة أبقاره.

الترقي عند قبيلة الماساي له طريقة معينة؛ فيترقى الشاب حتى يصبح رجلًا، لكن هناك ضريبة لابد من دفعها؛ حيث يُدفع بهذا الشاب قرابة الأربع سنوات في الغابة ولابد أن يُحضر شيئًا يثبت من خلاله أنه قتل الأسد مثلًا، فيُحضر أحيانًا جزء من جسد الأسد.



قبيلة الماساي معروفون بأنهم محاربون أشداء وبالذات في قتل الأسود، ولهذا فإن كثيرًا من المختصين في دائرة الحديث عن الحيوانات يؤكدون على أن الأسود تعرف رائحة أحد أفراد قبيلة الماساي؛ وقد أجريت تجارب في بعض حدائق الحيوان وخصوصًا في نيروبي، حيث يمر الناس أمام الأسد فلا يتغير، فإذا مر أحد المحاربين من قبيلة الماساي وخصوصًا الأشداء منهم فزع الأسد.





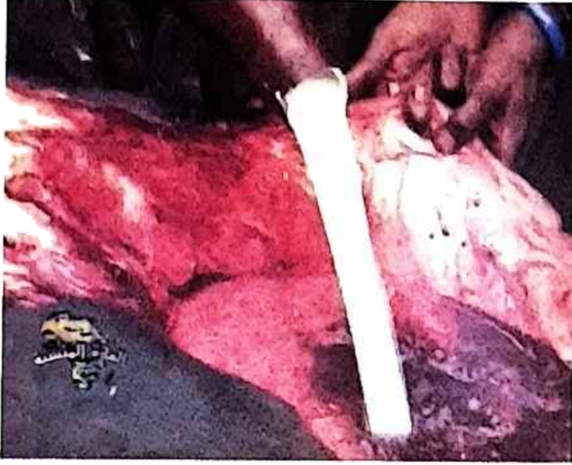
والعصا مهمة فقد دخلنا عليهم بدون العصا فكانت هذه في حقنا نقيصة كبيرة، لأن الرجال يحملون العصي، بينما النساء لا يحملن العصي.

كما حضرنا حفلًا للترقي، كما يقولون، هذا الحفل جُمع فيه مجموعة كبيرة من الشباب ممن أمضوا عمرًا طويلًا في الغابة وقتلوا الأسود، وفرحوا بهم كثيرًا، إلا أننا لم نستطع أن ندخل بسبب أننا لم نقتل أسدًا لذا رفضوا أن نصور في الداخل تمامًا.



والأدهى من ذلك والأمرُّ أنهم كانوا يمضون فترة أسبوع تقريبًا في احتفالاتهم لا ينقصها شيء حتى الخمور كانت موجودة فيها مع كل أسف.





سعى أحد زعمائهم لإكرامنا فأحضروا بقرة وخرقوا رأسها وهي حية وسلخوا جزءً من جلدها ثم جعلوا الدم يسيل داخل الجلد الذي صار مثل الإناء ثم صبوا عليه الخمر والحليب فافتتح الزعيم الشرب وقدموه لنا في قدح فاعتذرنا، كما قدموا لنا أغلى طعام عندهم وهو خصيتي الأسد مشوية فأخبرناهم أن ديننا يمنعنا من أكلها.





أما النظام الاجتماعي عند الماساي فمتشدد جدًّا حيث يبقى الصبي مع والديه حتى سن الرابعة عشرة ثم يغادر المنزل إلى الغابة لمدة أربع سنوات ليعتمد على نفسه، ثم يتم ختانه في احتفال كبير، دون أن يُبدي أي ألم.





حضرنا حفل الختان وكان يوماً عصيباً، لم أكمله وأبلغتهم أن ديننا يحرم علينا مشاهدة العورات... شباب في مقتبل العمر يصطفون في مشهد جماعي، يأتي كبير القبيلة لينفث على رؤوسهم من فمه ما يحصل لهم به البركة (أظنه ماء وبعض الخمر) ثم تبدأ عملية الختان دون أن يبدي أحد منهم توجعاً أو صوتاً !!!

والابن الأكبر هو الذي يرث والده ويرث حتى الزوجات دون والدته، أما الابن الأصغر فيرث ممتلكات أمه بعد وفاتها.





أما إذا لم يكن للأب سوى البنات فإنه عادةً يُجبر إحدى بناته على عدم الزواج، ويطلب منها أن تحمل من أي شخص تراه مناسبًا في القبيلة دون زواج، فإذا ولدت ذكرًا، فإنه يرث عن جده كل ممتلكاته.

أما إذا مات أحد المحاربين قبل الزواج، فتُقرر العائلة أن اسمه يجب أن لا يُنسى، وعندئذ يتم اختيار عروس له بعد موته تهتم بحيوانات الميت، وتحمل من أي شخص في القبيلة، وعندما يولد الطفل فإنه يرث ممتلكات أبيه الميت المزعوم ويحمل اسمه.

العجيب أن عندهم رمح إذا جاء الرجل إلى بيته، ووجد الرمح مغروسًا أمام باب البيت، فمعنى ذلك ارجع هناك رجل عند زوجتك، ومن كامل الأدب أن يتركه!!.





أما المقاتل من القبيلة إذا وصل إلى درجة الموران، وهي أعلى درجة، فيحق له أن يدهن جسده بدهن الحيوانات وشحمها، ويتزينون بنقوش من الطين، يرسمونها على سيقانهم، كما يضعون الطين الأحمر على رؤوسهم.

وتسمى لغة الماساي بلغة الما وهى فيما يبدو مأخوذة من مسقط رؤوسهم العاصمة نيروبي حيث أن معناها بلغتهم الماء الحلو.

وللماساي إله واحد موجود في الشمال، يسمونه أنكاي، مع العلم أن مكة المكرمة تقع في الشمال، وهم في غالبهم وثنيون رغم جهود الكنيسة الكبيرة لتنصيرهم فهم غاية في الصعوبة، ورغم ذلك فقد أسلم منهم عدد بحمد الله تعالى.

زرنا قرية أخرى من قبائل الماساي، ومعظم أهل القرية من المسلمين؛ وقد دار بيننا حوار طويل حول رعاية أيتامهم، وتعليمهم الإسلام، وطلبوا بناء مسجد من الطين أو الخشب لهم، وطلبوا حفر بئر.

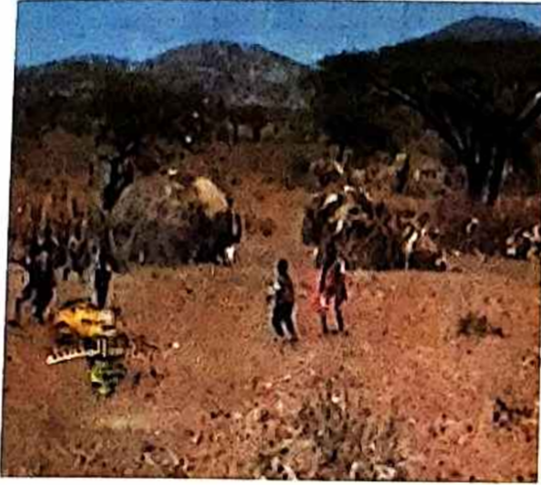
وعند نهاية اللقاء أصر زعيم القبيلة أن يُهديني رابطة اليد الخاصة به، فأخبرته أننا لا نلبسها، لكن الشخص المرافق معي رفض الترجمة، وقال لي خذها لأنه من العيب عندهم أن ترفض هذه الرابطة، وهم لا يهدونها إلا للشخص الغالي عندهم فأخذتها مرغماً.

وانطلقنا عائدين خلال الغابة، والتي امتلأت بالغزلان، بينما لم نشاهد الأسود قريبًا من بيوت الماساي؛ فقد أخبرونا أنها بعيدة جدًّا عنهم حيث تخاف منهم ولا تقترب.

قبائل الكيكويو

تُعد قبائل الكيكويو أكبر قبائل كينيا إذ يزيد عدد أفراد القبيلة على سبعة ملايين نسمة. ومن هذه القبيلة خرج أغلب زعماء كينيا، وقياداتها.

ويذكر أبناء القبيلة قصة أصبحت عندهم حقيقة وهي أن جدهم كيكويو رُزق بتسع بنات، وكان يتعبد تحت شجرة تسمى موغومو ثم دعا ربه ليرسل له من يتزوج



بناته التسع، فأمره أن يطوف تسع مرات حول الشجرة المقدسة حسب زعمهم ويذبح عجلاً ثميناً ثم يشوي لحمه ويتركه على النار ليأكله الرب، ففعل ذلك فتقبل الرب دعوته، فخرج من الشجرة تسعة رجال تزوجوا البنات التسع واشترط عليهم كيكويو أن لا يسكنو بعيداً عنه وأن ينسب أولادهم لأمهاتهم، ولهذا تُنسب أسماء العوائل الكبرى عندهم إلى أسماء البنات التسع المعروفات.



أما العادات الغريبة في هذه القبيلة فكثيرة، سواء في الزواج، أو الختان الذي يُلزَم به الذكور في سن الثامنة عشرة، والإناث في سن الخامسة عشرة، ولا زواج لمن لم يختن.

ومن الطريف أن أُخُوَّةَ الختان تُضاهي عندهم أُخُوَّةَ الدم، فالمختونون في نفس المكان والزمان، يؤاخى بينهم أكثر من غيرهم.



وينتشر السحر في هذه القبيلة، وكذلك اعتقاد تناسخ الأرواح، وإذا مات شيخ القبيلة يُدفن مع أعز ما يملك.

قبائل الريندیلي

في شمال كينيا يسكن حوالي خمسة وعشرين ألفًا من قبائل الريندیلی والتي جاورت قبيلة السامبورو الوثنية، وقد أرادت الزواج منهم فاشترطوا عليهم أن يتبعوا دين الوثنية، وأن يحرقوا كتابهم المقدس، وأن يثقبوا آذانهم مثلهم، وأن يقلدوهم في العادات؛ فتحولوا إلى الوثنية.



وهم يشربون الدم بعد جرح رقبة البقرة بالسهم، ويثقبون آذانهم ويضعون الأثقال فيها؛ ويتزينون بالطين.

ملامحهم قريبة من الصوماليين؛ ولا زالوا يحتفظون ببعض أصولهم الصومالية، ولبيوتهم أشكال خاصة.



وتحتفل قبائل الريندیلی بظهور البدر في منتصف الشهر العربي ويقومون بالدعاء متجهين شمالاً جهة الكعبة.

وعندهم احتفالٌ آخر اسمه المادو وربما كان تحريفًا لكلمة الحمد، حيث يستمر هذا الاحتفال أسبوعين، وفيه دعاء، وصلاة، ورقص، وغناء، ويسألون الله فيه المطر، وأن يبارك لهم في العام.

ولابد من إشعال النار المقدسة، ويحملون معهم جزءً من النار يدورون بها حول القرية لمباركتها. إنهم يعيشون غربة رغم أن أصولهم إسلامية، فهم بحاجة إلى الدعاة والمعلمين؛ بحاجة إلى أن نتذكرهم فهم منسيون.

قبائل الغبرا

قبائل الغبرا البالغ عدد أفرادها خمسة وعشرون ألف شخص، يعيشون في أماكن متباينة، في ظروف معيشية واختلافات بيئية.



حياتهم تقوم على منظومة من العادات والتقاليد توجه السلوك العام للتعامل مع البيئة المحيطة بهم؛ فهم يعيشون في بيئة قاسية جافة، يبذلون أقصى الجهد في العمل، مع التعاون والتكافل.

كما أنهم يحترمون السلم الاجتماعي في تصنيف الأفراد من حيث؛ الأدوار الاجتماعية التي يؤدونها في مجتمعهم، فتسير الأمور غالبًا في يد كبار السن.

تهتم قبائل الغبرا بالماشية من الجمال والماعز، وتقوم بتقسيمها في مجموعات؛ حسب العمر، والنوع، وحسب إنتاج الحليب.

ويعتبر الجمل حيوانًا لا غنى للغبرا عنه في نضالها من أجل البقاء بالإضافة إلى كون حليب الإبل من أهم الأغذية عندهم.

والغبرا يقسمون بنور مكة ويتساءلون هل مكة هذه فيل أم شجرة؛ فهم لا يعرفون مكة.

ولهم أصول عربية واضحة من خلال الملامح، أو الكلمات المستخدمة.

ويعتقد الغبرا أنه كان لدى أجدادهم كتاب مقدس، إلا أن بقرة أكلته منذ زمن بعيد، ولذلك عندما يذبحون بقرة فإنهم يشقون بطنها، ثم يستدعون علماء الدين للبحث عن بقايا كتابهم المقدس الذي أكلته جدة هذه البقرة. وهم يُصَلُّون أربع مرات، ولكن دون ركوع أو سجود، حيث يوجد مكان في كل قرية يسمونه مُسيجيدًا، ويتجهون فيه إلى القبلة.



قبائل الغريامة

قبائل الغريامة؛ قبائل لها تاريخ كبير في شرق كينيا؛ حيث يعتقد كثير من الباحثين أنهم ساهموا مع الحاكم المزروعي في طرد المستعمر البرتغالي؛ والغريامة لهم عادات وطقوس كثيرة، ولهم أسس يقومون عليها، فهي قبائل في غالبها وثنية.



وتُقدر أعداد القبيلة بأكثر من مليون نسمة، وتتميز حياتهم بالكثير من العادات والتقاليد التي ترتبط بحياتهم الاجتماعية ارتباطًا قويًا؛ ومن ذلك اهتمامهم بطريقة اللباس للرجال والنساء، فهم يلبسون لباسًا معينًا؛ فملابس الرجال مكونة من ثلاث قطع، وهو سر عزتهم وفخرهم كما يقولون.

أما منازلهم فلا تقل في الغرابة عن عاداتهم، وعن بقية المنازل في أفريقيا.



هذه القبيلة عندها أسماء مثل محمد وليس بمسلم، وكذلك رحمة وفاطمة وهي أسماء أخذوها من العرب ولكنهم لا يعرفون أنها أسماء إسلامية.

وعندهم الختان واجب، فهم يختنون الطفل بعد ولادته، وفي اليوم السابع يعملون له عقيقة، وقد توارثوا هذه العادات من الأجداد ولكن لا يعرفون من أين أتت لهم؛ كما أنهم يدفنون موتاهم متجهين للشمال وهو اتجاه مكة المكرمة.

والمسلمون منهم يصومون شهر رمضان، وهم يحترمون شهر رمضان احترامًا كبيرًا، وبعضهم يصوم في هذه القرية ولو لم يكن مسلمًا؛ فقد توارثوا هذه العادات عن آبائهم، وهم لا يعرفون أنها جزءٌ من الإسلام.

عادات كثيرة هي من الإسلام؛ ونحن نتساءل أين نحن عنهم؟.

أما معتقداتهم فهم يؤمنون بوجود إله يُدعى مولونجو هو الذي يرسل الأعاصير والفيضانات والجفاف ويقبض الأرواح، كما يعتقدون في أرواح الأجداد وأنها تتصل بحياتهم وتتدخل في شئونهم، وقد نصب هؤلاء نُصُبًا معينة لعدد من الآلهة عندهم.



قبائل العراة

قبائل العراة تقع في جبال النوبة في الجنوب الغربي من ولاية كاردافان المتاخمة للسودان وأثيوبيا، وهي قبائل غريبة لا تعترف بالملابس، ولم يكن من السهل أن نوفق في زيارتهم. فممنوع أن تدخل بالملابس؛ عيب عندهم أن تغطي جسدك لأن ذلك يدل على استحيائك من أشياء موجودة لديك.

وعند ذهاب بعضهم إلى المدن يلبس الملابس، ولكن عند عودته إلى قريته يضع الملابس على أقرب شجرة حتى لا يُرمى بالعيب.

ومع كونهم عراة إلا أنهم يهتمون بزخرفة أجسامهم كثيرًا، فالرأس والوجه والأجساد تنال نصيبًا كبيرًا من الوشم؛ ومن غرائبهم قبل الحصاد أنهم يبتعدون عن نسائهم، وينثرون الرماد على أجسادهم العارية.

والسحرة أو الكاجور يأخذ جزءًا من محصولهم ليسهل لهم المهمة عند الإله، كما يدعون.

وداعاً.. خادم الدعوة..



رحمك الله لو كنت بين أمة تهتم برموزها لتردد اسمك في الإعلام أكثر من تردد باعة الكلام، لكنك كنت صادقاً في البعد عن الأضواء، فكتب الله لك عملاً في الخفاء لم يكتبه لغيرك في العلن.



حيي السميط سماء الرفقة الصلحا
وذكره في معالي المجد ما برحا

واسكب على قبره أغلى الدموع فما
ترجو بدمع على الأبطال ما سفحا

واختر له من حديث الروح أعذبه
ومن بديع القوافي كلما صلحا

يا رائد البر من تيجانه اتشحوا
إذا انتشى كل مغرور بها اتشحا

سل الفقيرة من جلى غوائلها
فرفرفت في زوايا دارها فرحا

سل اليتيمة في أدغال مظلمة
من رق من دمعها الرقراق؟ من مسحا

ما مات من أنقذ الدنيا بمهجته
يا للخلود وللخير الذي فتحا[1]

---

(١) د. صالح بن علي العمري.

سنحتفل بك اليوم، ثم ننساك لتعود كما كنت محفوظاً في المنارات التي شيدتها، واضحاً في المحاريب التي بنيتها، مبتسماً في المراكز التي أقمتها، ظاهراً في الأيتام الذين رعيتهم، عمر يمتد عمراً، وعمل يزداد عملاً لفرد واحد، أثبت للأمة أن جهد المخلص يصنع المعجزات، ما بين سبعة إلى عشرة ملايين شخص دخلوا في الإسلام، إما عن طريقه أو طريق اللجنة التي هو ثمرتها وأصلها، شيد أكثر من ألف ومائتي مسجد، حفر أكثر من ألفين وسبعمائة وخمسين بئراً، كفل أكثر من تسعة آلاف يتيم.



اليوم أكتب شعر موتك لا أرى ... إلا الدموع على الخدود إلى الثرى

وتفيض من شعري دماء محاجر ... تبكي الفضائل لوعة وتحسرا

أبكي لفقدك والكويت تقول لي ... لولا الحرام خمشت وجهي سافرا

شكراً لصنعك بالكويت وأهلها ... فلقد لمست جبينها فتنورا

يا سيد الخيرات ناثرها على ... أهل الحوائج بالمدائن والقرى

نشروا عليك دعاءهم بدموعهم ... فغدا به قبر حواك معطرا

كم قصة لك في الإغاثة ذكرها ... نثر العطور على الحضور وعنبرا

أفريقيا السوداء أشرق نورها ... لما حللت بها دعوك الخيرا

تمشي إلى الغابات ترشد أهلها ... مشي النبيين الهداة إلى الورى

في كل ناحية تطبب مدنفاً ... وتغيث ملهوفاً وتطعم خائراً

لم تعط نفسك راحة ومنحتهم ... آثار إحسانٍ وغرساً مثمرا

متواضعاً متخشعاً ومثابراً ... حتى بلغت بها المقام الأكبرا

يا من عرفنا فيه همة أمة ... وعزائم الآساد آساد الشرى

إن المآثر بعد عمرك خلده ... ولقد خلدت بها خلوداً باهراً[1]

---

(١) د. حامد بن عبدالله العلي.

عجب أمر هذا الرجل!! مرض مراراً، وأنهكه التعب، وأشيع خبر موته مرات ومرات، وكأن الدعوات من المسلمين أبت إلا أن تشق عباب السماء للواحد الأحد سبحانه أن يحفظه، أصابته أمراض كثيرة وجلطات، فكانت من خيرة الله له، ولا نزكي على الله أحداً.



قال الشيخ نبيل العوضي: (في ليلة مرضه التي انتشر خبرها، من دخل على الشبكة العنكبوتية وعلى تويتر بالذات فإنه لن يجد أحداً يتحدث إلا عن هذا الرجل الجبل، بل الملايين في أفريقيا في تلك الليلة اهتزت، والأيتام بكوا، والأرامل أقمن الليل دعاءً له، وفي صلاة الفجر قام الناس يدعون ويقنتون له، وقد تكررت إشاعة موته وفي كل مرة تضج الدنيا بالدعاء له.

أول ما استيقظ من غيبوبته التي مات فيها كانت أول كلمة قالها: أريد أن أصلي، ائتوني بوضوء فإن لم يكن فأريد أن أتيمم، أين القبلة؟ ما سأل عن أحد، ولا سأل عن شيء، بل سأل فقط عن الصلاة، الصلاة الصلاة).

وعندما حل أمر الله ونفذت مشيئته سبحانه كان اليوم الذي ودعنا فيه خادم الدعوة، ليصل اسمه إلى كل مكان، ويكتب في سماء التاريخ أنه فاتح أفريقيا المعاصر

باللسان لا بالسنان، ودع العالم الإسلامي، ودعته أفريقيا، ودع الدعاة، إنه خادم الدعوة، وخادم الفقراء، وخادم الأيتام الذي لاقى ربه يوم الخميس الثامن من شوال من عام ١٤٣٤ للهجرة، الخامس عشر من أغسطس من عام ٢٠١٣ للميلاد، فودعته الكويت، بل ودعه العالم الإسلامي.

صلت عليه أفريقيا صلاة الغائب، بكته مراكز الأيتام، بكته الآبار والمساجد، بكته غابات أفريقيا التي طالما نادى فيها بالإسلام، بكته الدنيا كلها، إنه عبد الرحمن السميط، ويكفي عن كل لقب.

قال رحمه الله في ختام البرنامج للمشاهدين :(يا اخواني والله الرصيد العظيم هو ما قدمته لنفسك وليس ما أبقيته في بنوك الدنيا، نحن في العالم العربي نملك مئات المليارات لو أدينا زكاتها ما بقي في الأرض فقير.





دعوا أموالكم معكم في حساباتكم، لكن أنا أطلب منكم أن تتذكروا أنه سيأتي يوم من الأيام وسنموت، ويوم من الأيام سندخل القبر، فماذا أعددنا لمثل هذا اليوم؟ والله إن الكفن ليس فيه جيوب، ووالله إن القبر مظلم وضيق ورطب، ومليء بالحشرات، يا إخوان هناك جنة أو نار، فماذا أعددنا لأجل أن ندخل الجنة، وماذا عملنا حتى ننجو من النار؟

أنا أعتقد أن كل واحد منا - وأكررها - يجب أن تكون له رسالة ورسالته في أن نغير هذه الدنيا لتكون عالماً أفضل لكل الناس).

اللهم اغفر له وارحمه وارفع درجته وجازه عنا وعن أمة الإسلام خير الجزاء



خاتمة الكتاب

وبعد، هكذا انتهت الرحلة، انتهت فصولها، لكن أحداثها لا تزال عالقة في الذهن؛

لازلنا نتذكر تلك الملامح لأطفال أعياهم المرض، وأعوزتهم الحاجة، لا يجدون مايلبسون، ولا مايأكلون.

لازلنا نتذكر إنسانًا يسحب مركبة فهي وسيلة نقل ومصدر رزق.

لازلنا نتذكر فقرًا وحاجة ومساكن صغيرة، لازلنا نتذكر دعاة نذروا أنفسهم لله، يخرجون كل يوم للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

لازلنا نتذكر الدكتور عبد الرحمن السميط؛ رجل أتعبه المرض، وأعياه السفر، ومع ذلك ينتقل معنا في وسط مركب صغير بصعوبة؛ نحمله على الأكتاف نساعده من أجل أن ينتقل للدعوة إلى الله.

لازلنا نتذكر صِبية في أقاصي الأرض اجتمعوا لقراءة القرآن الكريم.

لازلنا نتذكر سفرنا، وعودتنا، وصولنا، ومغادرتنا، لقاءنا، ووداعنا، إنها لحظات جميلة تحمل عبق الزمن؛ ما أجمل تلك الأيام رغم شدتها وصعوبتها.

لازلنا نتذكر أقواماً يتمسكون ببقية تراث وتعاليم لا يعرفون مصدرها ولا يدرون لمن تُنسب... يقرأون آيات مخلوطة بشعوذة وكتابات غامضة، يحبون رجلاً في الشمال اسمه محمد، يتمنون أن يقابلوه أو أن يعرفوا أخباره.

نتذكر غربة عن الإسلام في بلد منسية أكرمها الإسلام وقدّم لها حضارة ما عرفتها على مر التأريخ.

نتذكر قبائل العراة، وفلول الماساي، ووحشية الغريامه، أمور غريبة في قارة منسية.

إنها رحلة شاقة، لكنها رحلة إلى بلاد المسلمين المنسيين، فمن المسؤول عنهم؟.

أين دعاة الإسلام؟.

أين أهل النخوة والخير؟.

ألا تعلمون أن عدد المنظمات الكنسية تفوق في بعض الأماكن أربعمائة منظمة كنسية.

يا تاريخ، يا دنيا سجّلي للدهر هذه المآسي، وبُثّي في السماء تلك الأمور، عسى الله أن يجعل للمسلمين فرجًا؛ والحمد لله رب العالمين.

في رحلة تحمل بين ثناياها التضحيات والحقائق والغرائب والعجائب ، بطلها اختار لنفسه أن يُنادى خادم الدعوة ؛ لأنه أحب الدعوة وخدمها بكل ما أُتيَ من قوة وطاقة ؛ رسم لنفسه منهجاً ، واختط طريقاً ، وسلك درباً تلذذ فيه بالمصاعب وفرح فيه بالمنجزات ، إنها منجزات دعوية تساوي عنده الدنيا وما فيها.

رحلة تخترق القارة المنسية « افريقيا» لترى من خلالها كعبتهم الدُعاني ، وتقابل فيها قبائل الماساي وهم يشربون الدم ويقتلون الأسد، وتتعرف على أحوال قبائل العراة ، بل تسأل هناك بعض من تقابلهم عن اسم بلدهم فلا يعرفونها.

إنها رحلة ألم وأمل ، ألم يعتصر القلب لقبائل منسية لاتعرف شيئاً عن الإسلام رغم أن أصولها إسلامية ، وأمل ترى بريقه في صفوف الدعاة وهم يتخرجون من مدرسة خادم الدعوة ؛ إنها رحلة في صحبة الدكتور عبدالرحمن السميط رحمه الله.

